ثروت أباظة



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الفجالة - القاهرة

نيام بالمضاجع

تأليف
ثروت أباظة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
الفجالة · القاهرة

القارعة

فى شارع من أكبر شوارع الزمالك رجل فى الحلقة الخامسة من عمره يقف فى جدية واضحه يشير للسيارات لتسير أو يشير لها أن تقف وعلى مبعدة خطوات منه يقف شرطى المرور ولكنه لايحفل به ولايكترث به وكأنه غير موجود .

والرجل مقتنع كل الإقتناع أنه لولاه لتوقفت حركة المرور فى الشارع وهو واثق أنها إذا توقفت فى الشارع توقفت فى القاهرة كلها وأحسب أنه على يقين أن هذه الحركة إذا توقفت توقف العالم عن الدوران وكفت الحياة عن الحياة .

وتنظر إليه فتدرك أنه مقتنع غاية الإقتناع أنه لولا يده التى يشير بها للسيارات أن تسير ما سارت وأن هذه السيارات بسيرها تسير الأيام جميعاً . وأحسده فقد اطمأن إلى أهمية وظيفته فى الحياة وارتاح إلى طمأنينته غير حافل شأن الناس جميعاً اقتنعوا بالحقيقة الثابتة فى يقينه أم لم يقتنعوا .

وما قيمة رأى الناس مادام هو واثقاً من حقيقة العمل الخطير الذى يقوم به . وأحسب أنه لو كان على إلمامه بالشعر لوضع لافته فوق رأسه تحمل بيت المتنبى الخالد يرد بها على نظرات الراجلين والراكبين على السواء ويتحدى بها علامات الإستغراب التى ترتسم على وجوه البشرية فى الشارع الذى يحرك منه الكون جميعا .

وهكذا كنت فى أهلى وفى وطنى

إن النفيس غريب حيثما كانا

أما الرجل فواضح المعالم و لحقيقة من أمره لاشك فيها ولا اختلاف حولها لأنه يعرض أمر نفسه على الناس أجمعين . وكلهم واثق من حقيقته . وبعضهم يشفق عليه وتأخذه به تلك اللمسة السماوية التى أودع الله منها قبساً فى ضمائر بعض الناس . فإذا قدر لك أن تقف بعض الحين تراقبه لرأيت ثم يداً تمتد إليه من حين إلى آخر تمنحه همسة من رحمة متمثلة فى مبلغ من المال الله وحده يعلم مقداره

ويأخذ هو ما تمنحه له السماء فى كبرياء صاحب الحق يتسلم حقه ويرفع يده بتحية فيها إباء ويستأنف عمله من إدارة حركة الكون .

هذا رجل — فيما أقدر — مرت به ألوان من تقلبات الحياة وخاض غمرات الأمواج حتى وجد شاطئه فى مكانه هذا والتمس عنده مأمنه من الحياة فأمن واستقر . والتقط اللاهث من أنفاسه المفزعة . وتصالح مع الحياة ووثق أنها تصالحت معه . فهو لا يسيء إلى أحد . ولا يعبأ بمن يحاول أن يسيء إليه وإنما ينصرف عنه انصراف الكبار عن لهو الصغار .

ترى كم فى حياة الناس من أمثال هذا الرجل ولا يعرف الناس عنهم شيئا تسترهم الحجرات ويتخفون وراء غلالات رقيقة من علم ساذج استطاعوا بها أن يستخفوا عقول الكبار ويجعلوهم يتوهمون أنهم أصحاب ثقافة أو أصحاب علم أو أصحاب دراية وهم من هذا جميعا أبرياء . وحين يتزاوج الغرور من الضائعين بالجهل ممن يملكون تقسيم الوظائف يثب إلى الكراسى أمثال هذا الرجل الواقف فى شارع من شوارع القاهرة .

أما هو فمجرد من السلطان مقصى عن إصدار الأوامر . وأما هم فبيدهم أدوات يملكون بها أن يصدروا الأوامر أو يصدروا الأحكام فى شئون الحياة . وفى الميدان الذى أعمل فيه أرى رأى العين من يحسب

نفسه أديباً لم تجد بمثله الأزمان فى قديمها وحديثها وأراه رأى العين شأنه شأن المسكين الذى يظن أنه يدير الكون من شارع فى القاهرة يظن أنه لولاه ما وجد الأدب العربى كله .

والأدب ميدان قاس عنيف لايقبل الهزل ولا يعترف بالدجل ولابد للأديب من إنتاج ، ولابد أن يكون هذا الإنتاج منفرداً حتى يبدأ الأدب فى تقويم هذا الأديب وإلقاء النظر إليه والحكم عليه إن كان يستحق أن يكون أديباً أو لا يستحق .

أما هؤلاء الذين اطمأنوا إلى مكانتهم الأدبية فأنا أعرف بينهم من ليس له إنتاج على الإطلاق وأعرف منهم من له قصة قصيرة أو بعض أقاصيص لا تزيد على أربع أو خمس .

ولكن هؤلاء الأصدقاء يملكون أن يرموا بهم إلى كراسى مناصب فإذا هم فى وقاحة أو إن شئت الكلمة الدقيقة فقل فى فجور يطلقون أحكامهم الجامعة المانعة على الجبال الرواسى والقمم الشامخات ولا يحاول واحد منهم أن يسأل نفسه ماذا قدمت أنا حتى أحكم على الآخرين ، ولكن النفس مولعة بخداع نفسها وهذا السؤال لايرد على تفكيره .. وهل هو صاحب تفكير حتى يرد عليه سؤال .

لقد حكم وحكمه نهائى بلا حيثيات وبلا معارضة ولا استئناف لأنه مثل الرجل الذى يحرك الكون ولا يحفل بشأن الناس وليس يعنيه أن يقولوا عنه فاجر يدعى لنفسه ماليس له ، ويضع ذاته فى المكان الوحيد الذى ينبغى له أن يختفى منه .

أما الرجل الذى يحرك المرور والكون فقد استمد وظيفته من طغيان

الأيام عليه ومن قسوة الزمان على مجرى حياته ومن عنف المقادير بإنسانيته .

أما هؤلاء الآخرون فقد خادعوا أنفسهم ووجدوا من المهازيل من يقبل أن يكون مخدوعاً فتصدوا للحكم على الناس ووجدوا كلامهم يجمع ويطبع وينشر على الناس .

أى زمان قدر الرحمن أن نعيش فيه حتى نرى ما نراه فنشهد الطبيب الأخرس والعالم الجاهل والأديب بلا أدب له والشاعر ولم يقل شعراً والناقد دون قراءة ما ينقده وإذا تركنا الأدب وألقينا نظرة إلى شتى مناحى الحياة وجدنا كثيرا من مناطق النفوذ يسودها الظلام القاتم حين كان ينبغى لها أن تكون حافلة بالنور . وإذا أنت حملت مصباحاً وألقيت النظر على شاغليها لوجدتهم جميعاً من هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم فى مناصب قد تصلح لأى إنسان إلا هم والجريمة ليست جريمتهم وحدهم وإنما هى جريمة فيها شركاء عديدون . والشريك فى القانون يعاقب بعقوبة الفاعل الأصلى أما الشريك فى هذه الجرائم فهو فى الحقيقة هو الفاعل الأصلى والعقاب واقع عليه أولا ثم هو واقع على من ولاهم ما لايستحقون من رأى الناس ثم هو واقع عليهم وعلى غيرهم من الاضطراب والمهازل والفوضى التى تسود مواقعهم وتسخر منهم كل سخرية وتحقر شأنهم كل احتقار ... ويومئذ تكون القارعة وما أدراك ما القارعة ... إن أمه لاشك يومئذ هاوية وما أدراك ما هى ؟

اللهم ياذا الرحمة والعدل ويامالك الميزان حين ينعدم الميزان إليك وحدك نضرع وبك وحدك نستجير ... سبحانك .

فلا دنيا ولا آخرة

أليست الخيانة والطغيان والمجازر والحروب والاعتداء على الحياة وتمزيق البشرية كلها كانت وليدة الطمع والجشع ورغبة الإنسان اللاهبة المحرقة أن يحصل على المال والسلطان وكلما بلغ منهما إلى مكان تطلع إلى المكان الذى يعلوه فالإنسان جشع بطبعه وقل منهم القنوع ومن أدرى بالإنسان من بارئه وهو سبحانه يقول . قتل ما أكفره . . وليس هنالك حد لجشع المال فالأرقام لا تنتهى وما دام المال قد أصبح غاية لا وسيلة عند مخلوق ما فويل لهذا المخلوق من نفسه . فهو لا يبحث عن المال ليرد عن نفسه وبنيه غائلة الحاجة وإنما هو يستزيد من المال لذات المال وحينئذ لن يقف به اللهج والجهد عند أمد ينتهى إليه .

وليس هنالك حد لجشع السلطة . فكلما بلغ الإنسان الكنود منها قدرا راح يبحث عن سلطة جديدة وهو لا يريدها لإصلاح شأن من تسلطن عليهم وإنما يبحث عنها لتحقيق ذاته فإن لم يصل بالطريق المشروع – وهو لن يصل به فالطريق المشروع لا يعطى السلطة المطلقة لأحد أبداً – خان وإن خان الأقربين وقتل وإن قتل الشعوب وطغى وتجبر وألغى الضمير من حياته فأصبح شراً من الحيوان .

فالحيوان لا يقتل الا حين يجوع يريد أن يسد جوعه . أو حين يخاف يريد أنْ يأمن . أما السلطان الطاغية فهو يقطع الرؤوس ليجعل منها سلماً إلى سلطانه أو يقطعها إذا كانت تفكر وهو لا يسمح لأحد غيره أن يفكر . أو هو يقطعها لأنه يخشاها حتى وإن كانت خشيته مجرد وهم لا يؤيده

برهان ولا يقوم عليه دليل فالخوف فى أغلب أمره لا منطق له . والسلطان الخائف ذئب مسعور .

والعجب العجيب أن الإنسان يصنع هذا جميعه وهو على ثقة لا مجال فيها لشك أنه ميت لا محالة . وهو على ثقة أيضا أنه عندما يموت لن يصحب معه مالا ولا سلطانا . بل هو سيصحب معه – لا شك – ماارتكب من آثام وجرائم فى سبيل هذا المال وذلك السلطان . وكلما ازداد ماله زادت آثامه وكلما طغى سلطانه تزاحمت جرائمه ..

وفى الناحية الأخرى من الحياة لن يكون فى حاجة إلى المال بل إن ماله سيكون وبالا عليه فتكوى به جباههم وجنوبهم ويشقون به شقاء جسيما . فلا هو استمتع بالمال فى الدنيا واعتصر منه ما يعتصره منه أولئك الذين يرون فى المال وسيلة لا غاية ، طريقا لا هدفاً . ولا هو جعل منه مفازة فى آخرة كريمة فتصدّق به وأحس تلك المتعة الفريدة التى يحسها المحسن حتى لأحسب أن الله بهذا الإحساس قد وهب له كل المكافأة التى وعده بها ولا هو ظفر بالآخرة بل إنه واجد هناك ماله ينتظره ليكون عليه ناراً لاهبة يكتوى بها....

أما صاحب السلطان فهو ملاق وبالا أشد وعذاباً أنكى فقد خاض بسلطانه وفى سبيل سلطان جديد بحورا من دماء وأهوالا من أرواح وداس بقدميه كرامات ناس وأمنهم وطمأنينتهم واعتدى على معنى كلمة الإنسان الذى كرمه الله وفضله على العالمين .

وقد يقول قائل : ويحك قد ابتعدت عن المنطق وافترضت أن جامع المال الملهوج أو صاحب السلطان المسعور يؤمن بجنة أو نار . أو يفكر فى الله الواحد القهار الذى لا يدوم إلا وجهه .

وإنى واثق أن مثل هؤلاء لا يفكرون فى الله فإن فكروا فبفكر وإلحاد وإنكار وهكذا يكون من الطبيعى رأيهم أنه لا آخرة هناك وأنه لا بعث ولا نشور وأنه لا يخلقنا إلا الطبيعة ولا يبلينا إلا الزمن ولا يمتنا إلا الدهر وأن الإنسان ما هو إلا عدم وإلى عدم .

وحينئذ يصبح أمرهم أكثر إثارة للدهشة والعجب . إذا كان الأمر كذلك — وما هو بذلك — ففيم حرصه على جمع المال وفيم سعاره فى ارتقاء السلطان .

الحقيقة أنه لا منطق مع هؤلاء وإنما هو جنون يتسلط عليهم فيختلط الأمر عليهم لاختلاط العقل فيهم . ولكن لله فى خلقه شئون فبقدر هذا الجنون الذى يتسلط عليهم ويغشى أبصارهم عن نهاية الإنسان نجد عقولهم غاية الذكاء والنشاط عند جمع المال أو السعى إلى السلطان . فإنهم حينئذ يتكشفون عن ذكاء نادر وحدة بادرة وتوقد ذهن يجعل كثيراً من الناس يعجب بهم . ولو كان هؤلاء المعجبون على ذرة ضئيلة من نفاذ إلى الأغوار وعدم انخداع بالمظاهر لأشفقوا عليهم كل الإشفاق ولرثوا لحالهم غاية الرثاء فإن الفرد منهم إنسان فى شكله بعيد كل البعد عن الإنسانية فى مخبره وفى داخله وفى تصرفه وفى مشاعره . فهو بلا عاطفة على الاطلاق لا يعرف الحب لأحد حتى ولا لبنيه . وقد تسأل كيف وحب البنين غريزة أودعها الله فى الآباء ولكن بربك لا تعجل فى الحكم فمن قال لك أن الله سوى هؤلاء الجشعين للمال والسلطان على ما سوى سائر الناس أنهم سرطانات بشرية خلقها الله سبحانه ليعرف الناس أنه سبحانه قادر على أن يشكل الناس ألوانا شتى وأصنافاً متفاوته وأنه قادر أن يرتفع ببعض

منهم إلى مرتبة هي خير من الملائكية وينزل بقوم آخرين إلى منزلة هي أسفل من الحشرية بله الحيوانية .

إنهم مخلوقات شاذة نفوسهم مسلطة على نفوسهم . والويل كل الويل لهم من ذواتهم . والويل كل الويل لهم من ذوى قرباهم ، من كان بهم على معرفة ولا أقول صداقة لأنهم لا يعرفون الصداقة إلا لمنفعة وما هكذا تكون .

أنهم لا يعرفون نبض القلب بالشفقة أو بالعاطفة . ومن لا يعرف الحب لن يجد أحد يحبه — ومن لا يعرف الشفقة ، يصبح عند الناس كتلة صماء من صخر مشوه لا معنى له ولا فائدة من وجوده . ومن لا عاطفة له ، ذميم عند الناس مقبوح الإسم والسمعة مرفوض من الناس لا يستطيعون أن يعيشوا بغير حب وجمال ونبض عواطف ورقة مشاعر .

هؤلاء الجامعون للمال أو للسلطان هم أكثر الناس بغضا عند أقربائهم وكلما توثقت وشائج القربى ازدادت دوافع الكراهية . وهكذا فأبناؤهم هم أشد الناس كرها لهم . أتراك الآن رثيت لهم كما أرثى .

لا الدنيا أصابوا ولا الآخرة ، ولاهم استمتعوا بمالهم فقد أذلهم جمعه عن المتعة به . ولا بسلطانهم ، فقد أرعبهم ذلك السلطان وسعار البحث عن الجديد منه أن ينعموا بأبهة السلطان ومباهجه وهم فى الآخرة شرابهم الغسلين ومهادهم النار وبئس المهاد ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ولا حتى جاهلية

كانت الجاهلية ضرباً موبقاً من الحياة . كانت مجتمع الإنسان المنسحق حتى هو بضاعة تباع وتشترى . ثم هو بعد أن يصبح عبداً يصير شيئا لصاحبه أن يصنع به ما يشاء بما فى ذلك القتل . وكانت الجاهلية مجتمع الإنحلال الخلقى حتى لكان سادة العرب يتاجرون فى الأعراض تحت الرايات الحمر تخفق بانهيار الشرف وضياع الحياء وغيبة النخوة وسقوط الكرامة

وكانت الجاهلية مجتمع الرجل فله أن يتزوج ما شاء من الناس بغير حدود إلى جانب الجوارى يتسراهن . فإذا كنت سمعت عن امرأة ذات قيمة فى الجاهلية فقد استمدت قيمتها من شخصيتها هى لا من حقوقها الاجتماعية وحين جاء زواج الأربعة كان تحديداً وإباحة فقد كان العدد مطلقاً بلا حدود .

وكانت الجاهلية مجتمع السيف والقتل وقوة الحيوان . فلا يعيش فى أنحائها إلا صاحب القوة والسلطان المستمد من السلاح فرداً كان هذا القوى أم قبيلة أم جماعة من القبائل .

وجاء الإسلام فاندكت هذه الأركان جميعاً .

فلا عبيد ولا سادة . « ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » صدق الله العظيم سورة الحجرات الآية ١٣ وهذه الآية وحدها من شأنها أن تكون بركاناً يقضى قضاء ماحقاً على مجتمع السادة والعبيد . أيكون أكرمهم أتقاهم لا أغناهم ولا أقواهم ولا أكثرهم جاهاً وعدداً

وجبروتاً وطغياناً فتلك إذن هى ـطامة الكبرى وتلك هى نهاية زمان وبداية زمان ، فلا عجب إذن أن يفعل الطغاة العرب ما فعلوا .

وجاء الإسلام « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ». صدق الله العظيم الإسراء الآية ٣٢ .

إذن فقد ضاع أيضا ذلك المصدر الضخم من مصادر المال ونكّست الرايات الحمر وأصبحت هباءة عندما تحرم باعة الأعراض والشرف من تجارتهم الدنسة وتنضب ينابيع المال التى كانت تنسكب عليهم من هاته الخيام المنكرة الذميمة .

وجاء الإسلام فإذا هو يرفع نور السلام على العالمين « لهم دار السلام » النساء ٩٤ . ويقول تعالى فى سورة يونس « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام » ويقول فى سورة الحشر « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام » ويقول فى سورة الفرقان « ويلقون فيها تحية وسلاما » وفى سورة الواقعة « إلا قيلا سلاما سلاما » فهو دين السلام إذن فلا عدوان ولا اعتزاز بالسيف على غير حق ولا إغارة على الآمنين .

وحين رفع الإسلام السيف رفعه من أجل السلام واستتب به السلام فلم يفتح دولة إلا ما كان يتوقع منها أن تهدد الآمنين من شعوبه ولم يرغم فرداً على الإسلام وإنما هو سلام سلام ومن يرغب فى اعتناقه عن اقتناع وإقبال فأهلا ومن يبتغى البقاء على دينه فآمن هو مطمئن وسلام عليه سلام .

واندثرت الجاهلية وزالت معالمها ولم يبق من آثارها إلا ما يرضاه الإسلام وعلى المدى التاريخى لم يكن هناك عهد كله شرور فلابد أن تكون

هناك إشعاعات من نور فى دامس الظلام فما بعجيب أن يبقى من الجاهلية النجدة والشجاعة وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج ورعاية الجار وإكرام من غلت بهم السن ومرت الأجيال فأين نحن اليوم من الإسلام ومما بقى من أخلاق سجاحة وإن كانت إلى الجاهلية تنتسب .

الظلام يلف العالم الإسلامى أجمع فلا ضياء من الإسلام ينير سماءه ولا بصيص من شرف يومض بين جنباته القتل والدمار والسرقة والانتهاب والبغى والعدوان والهول المبيد والفرقة والتنابذ والشقاق والتناحر والمسلم يقتل مسلماً . والجميع يقتلون الحق والإشراق والسلام والإيمان .

الدول تتخذ من الدول عبيداً . وبعد إن كانت العبودية لأفراد أصبحت العبودية لجماعات بأسرها ولأوطان بأكملها وانظر إلى أفغانستان وإلى دول المسلمين صامته راضية وانظر إلى سوريا وما تصنعه بلبنان وإلى لبنان وما تصنعه جماعات منها مسلمة بجماعات منها مسلمة وانظر إلى تلك الداهية الدهياء فى العراق وإيران . وهذا النكبة النكباء المسماه القذافى .

أين هذا من الإسلام بل وأين هذا من الجاهلية ويل للعالم أهو يتقدم أم يرجع القهقرى إلى أحط عهود الإنسانية وأشدها وبالا وأتعسها حالا ...

أيثب الإنسان إلى القمر بعلمه وينحدر إلى القرود بخلقه .

كيف يتحطم المنطق ويتهشم بهذه الصورة البشعة .

وما كان أغنانا عن القمر إذا كنا لا نستطيع أن نحافظ على الأرض .

وإذا نظرنا إلى مجتمعنا هذا المصرى الذى نعيش فيه طالعتنا الدواهى الآخذات .

لقد تحطم فى مصر الكثير الكثير مما كانت تعتز به مصر والمسلم ينسى إسلامه ويسرق ويرتشى ويثير الفتنة ولايرعى الله ويعبد المال وكأنه سيصحبه معه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . أو المسلم يغالى فى دينه ويبالغ مبالغة مفتعلة مصطنعة ناسياً قوله تعالى « لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق » النساء ١٧١ وقوله مرة أخرى فى الآية ٧٧ من سورة المائدة « قل يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق » يريدون أن يتخذوا الدين وسيلة إلى سلطان الدنيا . بئس مايبيتون . والله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . وهو سبحانه يدرى أن بعضهم بل بعض زعمائهم منغمسون فى الغى إلى الأذقان لا يتورعون عن الموبقات ما ثقل منها وما هو أقرب ما يكون إلى الكفر يتظاهرون بالورع وهم فيما يظنونه خفاء يرتكبون الكبائر لا يعفون عن أغفلها شأنا وأحطها قدرا .

وأين الجاهلية بما أجاز الإسلام من بعض أخلاقها أين النجدة والشجاعة وإغاثة الملهوف وإعانة المحتاج ورعاية الجار وإكرام الكبار .

وأين لغة القرآن وأين لغة العرب .

أما النجدة فأغلب الظن أن كثيراً من القراء لن يعرف معناها وهو يقرأها وأين الشجاعة وقد أصبح النفاق هو سمة العصر فلا تسمع كلمة حق إلا من النادرين القلة الذين لا يزالون يعتبرون أن الكلمة عرض وشرف .

وأين إغاثة الملهوف وأنت تجد الموظف يأبى أن يؤدى وظيفته الطبيعية إلا إذا أصاب مالا يجوز له من مال ويسميه إكرامية وهو عند الحق رشوة . وهل لمرتش أن يغيث ملهوفاً كيف ؟ شرف وخسة لا يجتمعان . كما لا تجتمع الأمانة مع السرقة أبداً .

وأصبحت رعاية الجار عدوانا على أمن بيته بالأصوات الصارخة من أدوات الإعلام أو من أبواق السيارات هذا إذا لم يتمثل العدوان فى تشابك بالأيدى أو الألسنه .

وما دمنا لا نرعى شأن الجار اللصيق فما بعجيب أن نسكت عما يحدث لإخواننا فى الإسلام فى بلغاريا والإسلام قربى ونسب . فما بالنا لم نر دولة من دول الإسلام حركت ساكناً لنصرة إخوتها فى الإسلام ولو بقطع العلاقات مع بلغاريا .

لقد كان العرب سباقين إلى قطع العلاقات مع زعيمتهم مصر لأنها استردت أرضها لأنها وقعت معاهدة كامب ديفيد التى يلهثون اليوم جميعا إلى معاهدة قريبة منها فتنقطع أنفاسهم وتنغلق دونهم الطرائق وتسد أمامهم المسالك .

وحين يقعد بهم العجز لا يجدون متنفساً لغيظهم إلا سب مصر وكامب ديفيد فعل الثعلب الذى لم يصل إلى العنب فراح يصب على العناقيد جام غضبته .

أيقطعون العلاقات مع مصر لأنها انتصرت لهم ورفعت ذكرهم فى العالمين وأسعار بترولهم فى دنيا المال وجعلت أنوار الإسلام تتلالأ فى أنحاء العالم أجمع . ويبقون على صلاتهم وعلاقتهم مع روسيا وهى تدك المسلمين فى أفغانستان . ومع بلغاريا وهى تنكل بالمسلمين المسالمين فى ربوعها .

أمثل هؤلاء ننشد عندهم رعاية الجار . أليست مصر جاراً لهم . وأماً لثقافتهم ومصدراً لعلمهم وفنهم ومجدهم فى أنحاء العالم المتمدين كله .

مصر الأزهر مصر المآذن يقطع المسلمون علاقتهم بها ويبقون على علاقاتهم مع الذين يبيدون المسلمين فى أفغانستان وينكلون بالمسلمين فى بلغاريا .

لا ورب الكعبة .. ولا والحرمين .. ولا إسلام فى هذا ولا حتى جاهلية الأخاء والنجدة .

واليوم نحن فى أعقاب عيد إسلامى نصطنع الفرحة على وجوهنا ونتبادل المعايدة أمماً وأفراداً وأصيح مع المتنبى :

عيد بأية حال عدت ياعيد

بما مضى أم لأمر فيك تجديد

فإن تكن عدت بقديمك فلا فرحة لنا فيك وإن كنت عدت لأمر تجديد فلنقل البيت القديم .

منى أن تكن حق تكن أعذب المنى

وإلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

حيرة .... ؟ !

إلى الرحاب القدسي من ساحة الرحمن يتوجه المكروب والملهوف وذو الحاجة فيجد نفسه المظلمة الخراب قد أشرقت بالنور الإلهي . أينع نبتها واخضل زرعها وأطل الندى جديبها واستقبل الحياة بعد إدبار واتسعت الآمال بعد اليأس .

فياهؤلاء المساكين الذين لا إله لهم إلى من يتوجهون وإلى أى مشرق أمل ينظرون .

ويل لهم لقد اختاروا لأنفسهم اليأس الذى لا أمل له والكرب الذى لا فرجه فيه والسواد الذى لا يستطيع شعاع أن يكشفه .

فلا عجب إن كانت نفوسهم كلها حقداً خالصاً ولا غرو إن كانت قلوبهم كلها كراهيه داكنه معتمة .

هم لا يستطيعون أن يقدموا حباً لأنهم لا يعرفون فى قلوبهم إلا البغضاء والتحاقد والسخيمة والدمار .

وهم لا يريدون فى الحياة سلاما لأن نفوسهم موات ودماء وقهر وطغيان وكيف لهم أن يعرفوا غير هذا وهم لا يؤمنون بالله السلام الرحمن الرحيم الغفور .

الذين لا يعرفون الله يريدونها حرباً بين أبناء الوطن الواحد وحرباً بين أبناء الجنس البشرى أجمع فمع الحروب يسود الخراب وفى الأرض الخراب تنبت أزهارهم ويخضل نبتهم وعلى الخراب يقيمون عروشهم أركانها قهر الانسان وقتل الايمان وكراهية الحب ونزع الأمان وإشاعة البهتان وإفشاء الذعر ونشر الفوضى ومحاربة القانون ومنع الخير ومباركة العدوان .

فلم يكن عجباً إذن أن يتحد الناصريون والشيوعيون وإن كان كثير من الناس قد عجبوا وأنا منهم فى الوهلة الأولى التى شهدنا فيها تحالفهم كان عجبنا أننا شهدنا الشيوعيين يلقون ألواناً من العذاب وصنوفاً من تدمير عناصر الرجولة والإنسانية فيهم على يد العهد الناصرى .

وكنا نحسب أن التنافر بينهم سيظل إلى أبد الآبدين ولكننا فجأة وجدناهم هم السادة الحكام يتسنون مناصب الصحافة والإعلام والفنون ويملأونها من أشياعهم ومناصريهم ويملأونها أيضا ممن لا يؤمن بمذهبهم ولكنه يريد أن ينشر ان كان كاتبا ويريد ان يمثل أو يخرج ان كان ناشئا ويريد أن يعيش إن لم يكن لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وما زالت آثار أغراسهم باقية حتى اليوم فى شتى الأنحاء تحارب غير الشيوعى أو غير الناصرى وتبارك كل ما هو كفر وإلحاد وتمجيد للطغيان وتعظيم للظلم والقهر والعدوان .

وهكذا لا نسمع شيئا عن حرب رمضان إلا أن يكون هجوماً ورفضاً مما اضطر رئيس تحرير الأهرام أن يصيح بهم فى مقاله الأخير أفيقوا وأعدلوا فإن الأمر ليس لهوا ولا لعباً .

وأنا أكتب هذا الكلام اليوم بعد أن فكرت حتى ضاقت بى مسالك التفكير .

أما الشيوعية فنظرية واضحة المعالم معروفة الأسس طبقت فى بلاد كثيرة لأن لها كياناً يستطيع من يريد التعرف عليها أن يجده .

وصحيح أنها فشلت عند كل تطبيق إلا أن هذا لايمنع أنها نظرية لها معالمها المميزة .

وصحيح أن أى دولة لا يمكن أن تطبقها إلا إذا ألغت تماماً فكرة الأديان إلا أنها تظل مع ذلك فكرة ذات سمات ظاهرة وصحيح أن الصين أضخم دولة فى التاريخ وجدت فى تطبيقها الخراب والدمار مع أن الصين كان يمكن أن تقول حسب الفرد منا رغيف العيش وليذهب كل ما عداه إلى الجحيم وليس توفير ألف مليون رغيف ثلاث مرات أو مرتين فى اليوم بالشيء اليسير ولكن الصين وجدت أن النظرية ألغت الإنسانية فى الشعب الصينى ولم تستطع مع ذلك أن توفر رغيف العيش ذلك لأن الصين تعتمد على مواردها وحدها وليست مثل الاتحاد السوفيتى الذى يعتمد على موارد كل الدول التى أرغمها أن تكون تابعة له .

صحيح هذا ولكن تظل النظرية الشيوعية مع ذلك نظرية يستطيع من يدرسها أن يجد لها مقدمات ونتائج ومعالم وملامح .

ولكن الذى أريد أن أعرفه والذى استغلق على ماهى النظرية الناصرية ؟

ما هى المبادى التى يمكن أن يقوم عليها الحزب الناصرى ؟

المبادىء التى يمكن أن أتصور أن تقال غير قابلة للإعلان وإلا فتصور معى ما طاف بخاطرى .

المبدأ الأول قتل حرية الإنسان المصرى فى العمل أو القول أو التفكير بحيث يتم اعتقال كل من يظن العاملون فى المخابرات من رجال ونساء أنه أتى شيئا من هذه الممنوعات بأى صورة من الصور والعقوبة تكون الاعتداء على المال أو العرض أو الأرواح أو كل هذه العقوبات .

المبدأ الثانى أموال الدولة كلها ينبغى أن تكون فى خدمة الحزب يتصرف فيها كيف يشاء وينفقها الحزب فى الأغراض التى يرى الحزب أنها

تحقق الشهرة والهتاف للحزب ولما كان الحزب هو مصر جميعا فكل إنجاز يحققه الحزب لنفسه إنما يحققه لمصر جميعا .

ولو مضيت فى هذا السبيل ما توقف القلم قبل أن يكتب كتبا كاملة لاعدد لها .

وإذا كان الحزب الناصرى سيتبنى النظرية الشيوعية فما الحاجة إليه مادام منضما بكل أعضائه إلى الشيوعية وأحزابها الظاهرة والخفية .

وإذا كان سيتبنى المبادىء التى نادت بها الثورة فى يولية عام ٥٢ أفلا يعتقد أن هذه المبادىء قد طبقت فعلا بكل أمانة فى غير العهد الناصرى وعلى كل حال فما دامت طبقت والدستور يضمن الحفاظ عليها ففيم إذن يقوم حزب ليضع مبادىء موضوعة فعلا ويضمن بقاءها دستور وحزب وحكومة ومجلسان تشريعيان .

حيرة .... ولكن الله سبحانه الذى يهدى السبيل وينير الظلام ويزيل الحجب قادر أن يزيلها وإنه على كل شىء قدير .

بهلوان فى لوزان

أجلس فى لوزان على مقهى صغير فى ميدان شهير هنا يسمى ميدان سان فرنسوا ويمتاز هذا المكان بالهدوء وكثرة المارة وعجيب أن يجتمع فى مكان واحد الحركة والهدوء فى وقت معاً أحببت سويسرا كلها من هذا الميدان فالناس دائما فى سعادة وفى إقبال على الحياة دون أن تعدو هناءتهم على هدوء الآخرين فالسعادة عندهم ابتسامة تنبئ عن قلب ليس فيه ما ينغص حياته . والإقبال على الحياة عندهم توسعة للآخرين أن يقبلوا على حياتهم .

وفى اليوم التالى لوصولى إلى لوزان ذهبت إلى المقهى فى الصباح فوجدتها على عهدى بها . ولا أدرى ما الذى جعلنى أفكر أن أذهب إليها فى بعد الظهيرة أيضا . وقليلا ما أفعل . فوجدت الميدان مزدحماً متحلقا حول بهلوان يعرض ألعابه عليهم وهم على مشاهدته مقبلون . وفكرت قليلا . وعجبت كيف أهرب من البهلونات فى القاهرة أجدهم سبقونى إلى لوزان . ولكننى عدت إلى نفسى وفكرت . أن هناك فرقا . فبهلونات القاهرة يعرضون ألعابهم وقد تزيوا بزى المحترمين من القوم وأسفروا للناس عن وجوههم التى خلقهم الله بها واتخذوا أدوات البهلوانية من العمل والقلم والورق . وادعوا الحق وهم فى أقصى الباطل وتظاهروا بالأمانة وهم غرقى فى الخداع والمخادعة .

أما بهلوان لوزان فهو بهلوان يعلن على الملأ أنه بهلوان ولا خفاء وبهلوان لوزان ينشد الحصول على صبابة من مال ويقولها فى صراحة ووضوح

ويتزيا لغايته فى ملابس البهلوان ويصبغ وجهه بصبغة المهرج . فهو بما يقدم سعيد والناس بما يرون منه سعداء بغير حقيقته . وهو يقف على أرجل طويلة ولكنه لا يحسب بهذا أنه أرفع من الناس قدرا . أو أنه قادر بذلك على أن يخدعهم عن حقيقة قامته . وبهلوانات القاهرة قصار القامة ضئيل حجمهم بكل المقاييس ولكنهم فى جرأة المنافقين يحاولون أن يموهوا على الناس - ويجعلوهم يظنون بهم ارتفاع الهامة وشموخ الرأس . ولو كانوا على قدر ولوضئيل من الذكاء لقدروا أن أول مبادئ الذكاء أن تقدر ذكاء الآخرين وأن الشعوب هى أذكى العالم نفراً فمن يحاول أن يخدعهم سرعان ما يكشفوا أمره ويتبينوا حقيقته .

من هذه البهلوانات من عملوا فى خدمة الطغيان فكانوا الآلة الصماء تمسك بهم يد حديدية فراسة باطشة راحت تلعبهم وتتلاعب بهم .

ومنهم من كانوا لصاحب السلطان أو قل لصاحب الطغيان جواسيس ينقلون إليه أنباء الآمنين من الناس فإن لم يجدوها لفقوها ثم جعلوه يتخذها ذريعة لكل ما تقشعر منه الإنسانية وتأنف أن يكون بين أفرادها من يفكر فيه بله يصنعه .

ومنهم من أمر بهم أن يكونوا قواد جيوش واساطين حرب فإذا بطولاتهم تسفر عن ٦٧ وحسبهم هى خزيا .

وجميع هؤلاء اليوم يريدون أن ينتفضوا عن وطنيين مرنوا على مكاذبة الحياة والغدر بعقول المصريين فهم يسعون جهدهم أن يعودوا إلى الحياة العامة وليس يبالون تاريخهم الأسود بل هم يدعون اليوم أنهم كانوا يرفضون ما كان يحدث ولا أدرى ماذا هم قائلون عما اقترفوه فعلا وهم قضاة أو رجال دولة . ولست أدرى أيضا ماذا هم قائلون عما أغتالوه من

أموال لأنفسهم ومازالوا ينعمون بها حتى اليوم إلى جانب ما اغتالوه من أرواح بشر مصريين وما اغتالوه من كرامة مصر نفسها بل أن منهم من يصور له وهمه أن إنقاذ اقتصاد مصر معلق بعبقريته فهو يعد المشاريع ليزيح عن مصر الهول الآخذ الذى كان هو نفسه من الدعامات الكبرى فى إنزالها بمصر .

بهلوانات كثيرة ذكرنى بها ذلك البهلوان ولكن بهلوان لوزان لم يسئ إلى بلاده ولم يشارك فى انتهاب أموالها والبهلونات الآخرون شقوا الأفق ليغيبوا فيه شمس مصر يريدون اليوم أن يعرفوا الأيدى التى تحاول أن تشد شمس مصر من مغربها لتعود إلى الإشراق على ربوعها ولتزدان مصر بالحرية التى خنقوها وتهنأ بالحب الذى جعلوه حقداً وبغضا وكراهية . وبالسلام بعد حرب منتصره حققناها بعد أن أشعلواهم الحرب على أبناء مصر حين فشلوا فى حروبهم مع أعداء مصر .

العود أحمد ..

أنا أعد نفسى للعودة من بلاد الإنسان فيها أعلى قيمة فى الوجود .. وأنا أكتب هذا وأنا فى سويسرا بلاد الجبال والبحيرات .. كيف استطاعوا أن يخضعوا الجبال وهى الشاهقة البالغة أعنة السماء للإنسان فهى متعته وهى رياضته ونزهته والبحيرة يركبها ذلولا تشرق للإنسان بأكمل ما فيها من وجوه أنت عليها بطل .. كيف أصبحت الجبال الصخرية الصلدة أرضاً خصبية معطاء .. وكيف غدا الصخر الصلب الشديد بيوتاً هى زينة ومتعة فى عين الرائين .. وهناء ورغداً لعيش الساكنين .

وتمشى فى الطرقات فتجد المصاعد الكهربية توفر عليك عناء الصعود أو الهبوط وترى الطريق أمامك يضحك لك يستقبلك إمش بإذن الله بسلما معافى .فلا خوف عليك من عثرة ولا ضير على قدميك من مفاجأة أنت آمن فى خطاك هادئ بسيرك فى جنبات المسالك .

وكنت قد انتويت أن أعود إلى مصر فى آخر هذا الشهر . ولكن فجأة عافت نفسى الحياة فى أكناف لوزان الفيحاء وفى إشراقة الدنيا بها وملت نفسى السعادة فى صباح ومساء . الصباح إشراق لا تلقى فيه إلا الوجوه الوضيئة بالأمن الراضية عن العيش والمساء هدوء وسلام .

وتاقت نفسى إلى مصر . بكل ما فيها من وعثاء الطريق وغابات الأشجان ومتاعب النفس ونواقص الخدمات .

سئمت البلاد التى تعتبر الإنسان أغلى عناصر الوجود وسيد هذه الحياة .. وألح بى الشوق إلى مصر .. بكل مصر .. بطرقاتها المخلعة الأرصفة المحفورة المسار بماتها وما فيها مما ندريه ولا يدريه إلا عالم الغيب والشهادة .. بشكاوى الناس من قلة الإيواء وصعوبة النقل ووعورة اليوم . وانكماش الغد وضآلة الرزق وغلاء المطلب .

وجدت الحنين إلى مصر هذه يقتلعنى إقتلاعا من مقامى بسويسرا ويدفعنى دفعات جائحة إلى بلادى فالهناء فى سويسرا ليس هنائى والديار ليست ديارى . والربوع ليست ربوعى والنسمة تهفو إلى من غزالة بلدتى بجوار الزقازيق أحب إلى من كل الجمال فى سويسرا ومن كل هذا الهناء فى أنحائها ومن كل الطمأنينة فى جنباتها فكل هذا مبذول لأصحابه وليس لى وإن شملنى منه نصيب وأنا بينهم فكما يشمل المضيف ضيفه ببعض الرعاية . والضيف مهما ينل من العناية يظل ضيفا . وشعور الإنسان بأنه

ليس فى بيته يجعله دائما حذرا يترقب يوم عودته إلى كسرة بيته وإن كان عشا بلا فخامة .. وإن كان سقيفة بلا جدران .

وجئت وحمدت العودة وأحسست وأنا هنا أننى فى مكانى الذى خلقنى الله له وخلقه لى هنا أستاف عبير أبائى وأجدادى من تراب مصر وأشم أجمل هواء عرفته فى حياتى . هواء مصر فإن حبنا هنا وما مضى من أيامى هنا وما هو فى مطوى الغيب قابل هنا مثوى الذين مضوا من أعز الناس علينا ومستقبل نفوسنا ومن هم أغلى من نفوسنا من أبنائنا .

ونحن هنا غرس فى أرضه وثبات فى مكانه : أصل نحن هنا وفروع وماضى نحن هنا حاضر ومستقبل نحن هنا .. نحب هنا بقلوبنا ومشاعرنا ونبضات عروقنا وليس مع هؤلاء منطق إلا الحب .

ودخلت إلى مكتبى فى الأهرام أعز مكان على نفسى بعد قريتى وبيتى وقرأت بريدى ورحت أقلب الصحف التى لم تكن تصل إلى غربتى . ووجدت مجلة الأهالى فى أسبوعها الماضى . كلما قرأتها تملكتنى الحيرة ..

ماذا يقول هؤلاء الناس .. وما لهم ينصبون هكذا بعدوانهم الوقح على الحقيقة يريدون أن يدمغوها بالبهتان وما لهم يعترضون الطريق القويم بأسلحة الزور والكذب والتمويه .

فى صراعهم مع عبد الرحمن الشرقاوى وليس الشرقاوى بحاجة إلى أحد أن يقف إلى جانبه فهو وحده قادر وأكثر من قادر أن يمحق حججهم بقلمه الشامخ الجرئ .

والحق فى جانبه واضح .. وهو ابن مصر لم يتلكأ على أبواب المخابيل من حكام ليبيا ولم يصانع أثرياء البترول بقلمه أو كلمه .

ولم يقل عن أحد أنه نبى جاء فى غير موعده لأنه مسلم ويعلم علم يقين أن سيدنا محمداً عليه صلاة الله وسلامه هو خاتم الأنبياء . وهو قد قرأ تاريخ الأنبياء وعلم أنهم قمم الإنسانية وأى قمة أعلى من اختيار رب الناس ملك الناس إله الناس لحمل الرسالة . وهو يعلم كما يعلم كل مؤمن أنه لم يحدث أن ظهر نبى مجنون يخرب الأرض حواليه ويحرق الدنيا جميعا فى جنون الزعامة ويمال الشعب الذى فرض عليه حاكما ..

لكن الأهالى تقول أنه نبى جاء فى غيره موعده .

أهم مؤمنون بالأنبياء الذين جاءوا فى موعدهم حتى يؤمنوا بالنبى الذى جاء فى غير موعده وجعل معجزته محاولته السافلة الحقيرة أن يغير فى القرآن الكريم .

ولم يقل الشرقاوى أن القذاق آخر الصقور ولست أدرى من هؤلاء الصقور السابقون حتى أدرى آخر الصقور إلا أن يكونوا يقصدون بقولهم هذا أنه الطواغيت الذين يختطفون ما ليس لهم بحق والذين ينهشون لحوم الموتى والذين يأكلون الجيف إن كان هؤلاء هم الصقور الذين يقصدون فاللهم نعم أنه صقر .. واللهم ياذا المن سبحانك اجعله آخر الصقور فما أبغض الناس شيئا قدر بغضهم للطواغيت العتاه الظالمين السافكين دم شعوبهم وأهليهم .

أنا إذن لن أقف فى جانب الشرقاوى فهو ليس فى حاجة إلى أحد أن يقف إلى جانبه بل ربما عارضته أيضا فيما أطلقه من إسم اليسار الوطنى على جماعة بعينها فأنا لا أعرف فى مصر عدداً من الناس يمكن أن يكون جماعة إسمها اليسار الوطنى وإنما هم أفراد قلة مثل الشرقاوى — ومحمود توفيق وفتحى غانم وربما تكون هناك بعض أسماء أخرى لا تسعفنى بها الذاكرة ولكنهم على أية حال لا يكونون جماعة يمكن أن تحمل إسما .

وإنما أنا أريد أن أسأل الاهالى وأصحابها ما هجومهم هذا اللئيم الجانح على أنور السادات عملاق الحرب وعملاق السلام .. أليس هو من أنشأ حزبهم وأنشأ مجلتهم واختار من بينهم إثنين جعل منها وزيرين عاملين .. أهذا ذنبه عندهم أم هذا جزاؤه أم على قلوب اقفالها ؟

وما قولهم أن الأهرام جريدة حكومية .. ألا يعرفون أن الأهرام مؤسسة لها من المال ما يستطيع أن يخرج عشر جرائد فى حجم الأهرام بما كسبته من ثقة عند الناس فى مشارق الأرض ومغاربها . فالحكومة إذن لا تدعم الأهرام ولكن فليقولوا لى هم – ما داموا ينكرون أنهم يتقاضون الأموال من الدول الشيوعية ودول اليمين ودول البترول – كيف تصدرون أنتم ومن أى الموارد تنفقون على مجلاتكم أن اشتراكات أعضائكم كلها فى عام بأكمله إذا كانوا يسددوها لا تكفى لإصدار عدد واحد من مجلة واحدة من مجلاتكم .

إذن فأنتم تصدرون بدعم من الحكومة .. منه الدعم الظاهر الذى قرره لكم السادات ومنه الدعم الباطن المتمثل فى إعلانات الوزارات والقطاع العام فإن القطاع الخاص لا يمكن أن يعلن عندكم .. وكيف يعلن ويقدم مالا لإعلان فى جريدة لا يقرأها إلا المئات مشتتين فى أنحاء مصر ..

أنتم إذن الجريدة الحكومية أما الأهرام فإنه الأهرام وأنتم تعرفون وإن رغمت أنوفكم ما معنى كلمة جريدة الأهرام فى الآذان وفى النفوس وفى أنحاء العالم أجمع .

قرأت الأهالى عند عودتى لمصر وحزنت أن بين ربوع مصر أمثال هؤلاء ولكن مالى لا أقول مع المتنبى .

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا

فأفعاله اللائى سررن ألوف

لايغلب ظلم حقا

قال الشاعر :

تلوا باطلا وجلوا صارما

وقالوا صدقنا فقلنا نعم

وقد شاء الله لمصر أن تميع فيها الأمور ويجلس على عرشها ملك كان فى زمانه شر الملوك جميعا . طيش أحمق . وخفة جاهل وغيبة ضمير . وسوء مظهر ومخبر .

وكانت الثورة يومذاك أملا وتحقق الأمل . وأشرقت نفوس الشعوب مرتقبة الفجر . ولكن صدق على مصر بيت الشعر :

على الذم بتنا مجمعين وحالنا

من الرعب حال المجمعين على الحمد

ولم يكن الشعب يستطيع أن يصنع شيئا وسيف الظلم مشهر على الرؤوس فلم يكن للشعب بد من أن يقول نعم واللهو بحياة الشعوب لابد أن ينتهى بكارثة تحل على الجميع . الباطشين ومن بطش بهم فى وقت معا . وكانت كارثة ٦٧ فإذا هى تتسع ويتأجج سعيرها فيشمل العالم العربى أجمع ولا تكتفى بمصر وحدها وإنما هى تمعن فى بلواها فتحطم مع كرامتنا تاريخنا وأمجادنا وآمالنا .

ولما كانت سنة الكون أن تتأدى كل موجة فيه إلى انحسار فقد أذن الله لمصر أن يتولى أمورها رجل راشد صادق الوطنية عميق الشعور بمصريته

ووقف ينظر الخراب وأدرك أنه بين إثنتين ولا ثالث لها . إما أن تنتصر مصر في حرب ترد إليها وإلى العرب الكرامة الضائعة والشرف المزال والمحطم من أمجادها . وإما أن نموت جميعا في ساحة القتال . وكثيراً ما يكون الموت خيراً من الحياة .

وكانت حرب ٧٣ . وما كانت حرب ٧٣ لتصل إلى الإنتصار الذى حققته إذا لم يكن السادات قد أدرك قبل أن يعد لها أن الشعب يحتاج أن يشعر بانتمائه إلى مصر وأنه لن يشعر بهذا الإنتماء وهذه الطغمة من الذئاب الدموية تنتاش لحمه وكرامته وأمنه وحياته فكانت ثورة مايو هى التمهيد الطبيعى للحرب .

وبعد أن هزمت مصر فى ٦٧ وليس بيننا وبين العدو قناة السويس ولا خط بارليف انتصر الجيش المصرى نفسه وعبر بحور النار وحطم أسطورة بارليف ورفع العلم المصرى على جبال كنا على يقين أن القدم المصرية لن تطأها .

وشفع السادات هذا الإنتصار الحربى الذى أذهل العالم بانتصار سياسى لم يسبق له مثيل فى التاريخ وحقق لمصر السلام الذى لولاه لكان حالنا اليوم مثل الشعب اللبنانى الذى أمست حياة أبنائه نهباً للصديق والعدو وللحليف والخصم حتى لا يدرى بين الذين يعيشون فى ساحته من محب ومن كاره . ومن يؤازره ومن يهاجم وحسبه الله ونعم الوكيل . ولما كان العظماء يقدمون دماءهم ثمناً لشجاعتهم فقد شاء الله سبحانه فى علياء سمائه أن تكون نهاية السادات فى يوم مجده وفخاره وأن يراق دمه فداء لشجاعته .وحكم مصر حسنى مبارك وقد أدرك أن الحكم اليوم للحرية الحقة الصادقة وليست الحرية المكذوبة المشوهة . فمصر اليوم عزيزة

الجانب مطمئنة إلى سلام موثق لاشك فيه ومصر تحتاج أن تستعيد الثقا
المالية التي محاها حكم الطغاة والثقة لا تعود إلى دولة إذا لم تكن الحرية هي
أساس الحكم فيها وقاعدة الحياة بين ربوعها .

وأتاح حسني مبارك للحرية في مصر أن تكون هي الحياة فأصبح تجا
الكلام أدعياء البطولة يستخدمون الحرية في الاعتداء على أقدار الناس .
ولكن تلك هي الحرية ، ولم يكن حسني مبارك يجهل أن الحرية تفتح
ساحتها للشرفاء ولغير الشرفاء . وهكذا اتضح الرئيس حسني مبارك عن
زعيم يعتبر قمة في القوة وشدة البأس .

وكانت قوته متمثلة في قبوله لكل ما يقال لا يحاول أن يستعمل سلطان
في قمع قائل أو في إسكات مبطل أو إسكات مبطل كذوب . وإنما جعل
الأمر للرأي وحده ودون أن يتدخل السلطان في هذا الرأي فالقوة الحقه إنم
هي أن يملك الحاكم نفسه لا يفلت من يده زمام الأمر في غضبه أو
سخطه فالحاكم أقوى ما يكون الحاكم هو الواثق بأن ما يفعله هو الحق
وما يتغياه هو الخير .

فإذا انتقد ناقد نظر فيما يقول فإن كان حقاً انتفع به وإن كان باطلا
أعرض عنه دون أن يمس المبطل بأذى وحسبه رأي الناس فيما يقول ولذ
كانت الحرية في مصر اليوم كإشراق الصباح الذي لا خلاف عليه .

فقد أدرك أولئك الذين امتصوا دماء الشعب وأصبح ثراؤهم ..
يطاول أشد عتاة الرأسمالية أن لا سبيل لهم أن يعودوا إلى الحكم إلا أن
يتنادوا ويصطرخوا ضاعت الحرية فأدركها ياشعب مصر . وضاعت الثورة
فهبوا ياأبناء مصر .

ولو أنهم ينشدون الحق وحده لكان تناديهم ضاعت حريتنا فى قتلك ياشعب مصر فأعد رقابك إلى أفواهنا .

وضاعت مصادر الثروة من أيدينا فلا نملك اليوم أن نزيدها فأعطنا ثروتك ياشعب مصر .

وهم يدركون أن الذى بقى من الثورة هو خير ما جاءت به من هدم للملكية وإعلاء لقيم هم لم يحافظوا عليها وهم من حاولوا أن يطمسوها ولكنها بقيت لأنها أصيلة .

وهم يعلمون أن الحرية التى تعيشها مصر اليوم هى التى سمحت لهم أن يصدر أحدهم بحزب ملحد جريدة أسبوعية ليس فيها إلا الهجوم السافر على رئيس الدولة وكل شريف فى مصر وهى التى سمحت لبعض منهم أن يذهب إلى البلاد العربية ليستجدى من حكامها المال والرضا منتهزاً فرصة الخلاف الطارىء بين مصر وبين تلك الدول . وسمحت لبعض آخرين أن يتآمر علناً على الحكم فى مصر .

وهم يعلمون علم يقين أنهم حين كانوا فى طفولتهم وجبروتهم كانوا يقتلون من يضع يده لمجرد السلام فى يد واحد من أعدائهم . والأمثلة معروفة ولم يعد اليوم شىء خافياً . ولكن على قلوب منهم إقفالها وفى الوجوه منهم صفاقة لا تكون إلا للطواغيت . وإنهم لهم الطواغيت .

قصة لم أصنعها

ألتقى به فى عرض البحر الأبيض المتوسط مرات قليلة كل عام فمواعيد نزوله إلى البحر لا تتفق مع مواعيدى إلا فى أيام قلائل . ونتجاذب أطراف الحديث ونحن طافيان على سطح الماء بحركة هينة من الذراعين والساقين ونترك لأمواج البحر أن توجه مكاننا حيثما يطيب لها أن تتجه .

ويجرى الحديث بيننا هادئاً ليناً هنياً كأمواج بحيرة أو كأمواج الخليج الهادى الذى نلتقى فيه . لا نقاش بيننا وإنما قصص صنعتها بناء الحياة على مدار العام أو صنعناها نحن فى الحياة والعام أيام طوال ولقاؤنا ساعات قصار تتزاحم الأنباء فيه بغير تحاشد ولا مواثبة وإنما القصة تفضى إلى القصة والنبأ يسلم إلى النبأ وقد نفتتح الحديث بكلمة قرأناها لصحفى فى الصباح . أو لكاتب نشرها منذ قريب وقد تذكرنا الكلمة بقصة حدثت فى نهر العام ونرويها ومنذ أيام قلائل طلعت علينا صحيفة بكلمة لصحفى دأب على أن يدافع عن فترة بعينيها وعن أسرة بذاتها والتزم بهذا الدفاع يسارع إليه سواء دعا إلى ذلك داع أو لم يدع وأنما هى مهمة وضعها هو على كتفيه . ولا أظن أنه اختار هذه المهمة طواعية واختيارًا فقد ارتبط إسمه هو وما نال من وظائف فى دنيا الصحافة المصرية وغير المصرية بتلك الفترة وبناسها وبمن ينتسب إليها . فالدفاع دفاع عن نفسه وعن المديح الذى كان يكيله بغير حساب لهذا الزمن ولأعلامه واقزامه على السواء . وأخونا الصحفى يحسب أنه بما يدافع اليوم إنما يدفع عن نفسه تهمة النفاق . ويعلم الله أنه أوقع نفسه فى منطقة من الرمال المتحركة الخائنة التى

تبتلع الإنسان كلما حاول أن يتخلص منها ويزداد الابتلاع كلما ازدادت محاولة التخلص عنفاً وإصرارا .

وقال صديق البحر وهو يربت الأمواج بيديه .

هل قرأت ؟

قلت : نعم قرأت

قال : إذن أستطيع أن أروى لك ما حدث لى فى هذا المضمار .

قلت : وهل لنا عمل إلا الرواية منك والإستماع منى أو الرواية منى والإستماع منك .

قال : عشت عمرى اعجب بالعمال وهم يبنون

قلت : هذا طبيعى فأسرتك كلها عملها البناء أباً عن جد

قال : وهكذا أصبحت مهندساً ، وأنا مساهم فى شركة مقاولات .

قلت : وهذا أيضا طبيعى .

قال : عرفنا فى الشركة التى أساهم فيها أن هناك عملية إنشائية طرحتها شركة أمريكية تكلفتها تتراوح بين أربعة ملايين وخمسة ملايين من الجنيهات وتقدمنا لنقوم بالعملية وتقدمت معنا شركات أخرى منها شركات أفراد ومنها شركات من جملة أفراد . وبعد الفحص جاءت شركتى الأولى بين الشركات الأخرى ولكننى لم أسارع بقبول العملية فقد كان من بين الشروط واحد يقضى بأن أقدم للشركة خطاب ضمان بعشرة فى المائة من قيمة العملية ، وخطاباً آخر بخمسة فى المائة من قيمة العملية أيضا . ورأيت أن هذا سيكلفنا مبلغاً ضخماً من المال لا أحتمله . فذهبت إلى الشركة الأمريكية ورجوتها أن تعفينا من بعض هذه المبالغ الضخمة ولكن

الشركة رفضت قائلة أن هذا من قانون الشركة ولا يمكن أن يغيروا قانون الشركة .

وبناء عليه رفضوا العطاء الذى تقدمت به وقبلوا العطاء التالى :
أتعرف من صاحب العطاء التالى ؟

قلت : ومن أين لى أن أعرف وأنا لم أعرف كلمة المقاولة إلا مما درسته بكلية الحقوق .

قال : إنه من فلان ..

وذكر إسماً ، لا أستطيع أن أذكره فالحديث بيننا فى البحر ولا دليل معه يقدمه لى ولا دليل عندى أقدمه للقارىء . وهذا كلام إذا لم نشفع فيه الأسماء بالمستندات نكن ظالمين لأنفسنا ولذلك اخترت كلمة « قصة » عنواناً لهذا الكلام لأن القصة قد تصدق وقد تكون تأليفاً وخيالا .

مع أننى واثق كل الثقة من محدثى الذى أعرفه منذ قرابة عشر سنوات لم أجرب عليه إلا الصدق والأمانة والشرف ، ثم أنا رجل خالطت الحياة وعركتنى وعرفت من أخلاق الناس ما ينبغى أن يعرف من عاش حياتى ومن صناعته فى الحياة كتابة الرواية والمقالات والقصص وهذه صناعة إن لم تكن فيها واسع الخبرة بالناس وبالحياة فلا أمل لك على الإطلاق أن تقدم إلى الناس شيئا يستحق الذكر ، فالكاتب يقدم الناس إلى الناس وإذا هم أحسوا أنك لا تعرفهم حق المعرفة انصرفوا عنك كل منصرف .

فصاحبى صادق لاشك فى صدقه ، ولكن الذى أخشاه ألا تصدقه ـت فمن الخير له ألا أذكر إسمه ومن الخير لى ألا أذكر أنا الإسم الذى ذكره ، فهو اسم لا يجهله أحد فى العالم لا فى مصر وحدها بما ينتسب إليهم

من أقوام وبما ذاع عنهم من أحاديث ملأت الدنيا جميعاً فى يوم من الأيام .

إن الإسم الذى ذكره اسم فتى صغير ليس من المفروض أن يكون على أى قدر من الثراء فطبيعة ما سمعناه عنه تقتضى أن يكون مستوراً لا مليونيراً ولو سألناه أو سألنا المدافعين عنه من أين لانهالوا علينا بالأجوبة ولكن المؤكد الذى لاشك فيه أن أحد لن يصدق حرفاً من أجوبتهم .

وإذا شاء محقق صحفى أن يتصل بى ويسألنى عن صاحب الرواية التى سمعتها فى مياه البحر وعن صاحب الإسم الذى ذكره فأنا على استعداد أن أذكره بشرط واحد ، أن يتعهد المحقق الصحفى بتحرى النبأ وتتبعه وليس فى الأمر سر يخفى ولا سرقة فتستر إنما هو عطاء شريف فى عملية مقاولة تقدم من فتى فى أول حياته العملية ففاز بها وكل الذى نبحث عنه هو « من أين » فلا داعى هناك للإخفاء أو التستر ، سيجد المحقق الصحفى الطريق أمامه مفتوحاً على مصراعيه ميسوراً لسالكيه مرحباً بمن يسير فيه وأكمل محدثى فى الماء الحديث فقال .

تقدم هذا الشخص الأسطورة إلى الشركة وقال لها إذا كان الأول لم يستطع أن يقدم خطابات ضمان بخمس عشرة فى المائة من قيمة المقاولة فهانذا أقدم إليكم خطابات ضمان بثلاثين فى المائة من العملية . ورسا العطاء عليه بطبيعة الحال .

وللقصة بقية لاتخلو من طرافة فقد جمعت مناسبة من مناسبات الأفراح بين أخت محدثى ووالدة الشاب الأسطورة فإذا الأم تقول للأخت — فلان بك (محدثى) يدخل فى عطاء مع إبنى فلان

(الأسطورة) وهل إبنى قده . إن إبنى عصفورة صغيرة لا تحتمل ثروة فلان بك (محدثى) .

وتنتهى القصة وأتساءل . إذا كان وهو عصفورة قدم ثلاثين فى المائة فى حين أن المطلوب خمس عشرة فماذا هو صانع حين يصبح نسرا .

قصة أقدمها إليك تقرؤها فى هذا الحر اللافح وهذا القيظ الشديد وكل رجائى ألا تزيد وطأة الحر عليك . وألا تجعل القيظ غيظا . وقاك الله من الحر والغيظ جميعا انه سميع مجيب .

كان الله فى عون التاريخ

شرفت بعضوية مجلس الشورى منذ إنشائه ولا أذكر أننى كتبت شيئا أعلق به على موضوع تحدثت فيه داخل المجلس ولكننى فى هذه المرة مرغم أن أختط لنفسى خطة تخالف ما جريت عليه حتى اليوم فقد بدأ النقاش بحديث من الزميل الكريم نظمى بطرس تناول فيه أحزاب ما قبل الثورة بهجوم قاس عنيف وكان هجومه جانحا لم يتحسب فيه استثناء ولم يفصل مفرقا بين عهد وعهد أو فترة وفترة ورأيت فيما سمعت ظلما تأباه النفس وجورا لا يقبل الصمت فطلبت الكلمة للتعليق وقلت ما معناه أن تناول الأحزاب قبل الثورة لا يجوز أن يكون بهذه الصورة فى مجلس له احترامه وتوقيره عند الناس وأن أحزاب ما قبل الثورة هى وليدة ثورة تعتبر من أكرم ثورات التاريخ وإننا نكبر الحرية التى نعيش فيها اليوم لأننا عرفنا الحرية قبل الثورة ورجوت الزملاء الأعضاء أن يراعوا المسئولية التى نحملها على أكتافنا حين نتكلم فى المجلس الذى يحظى بين الناس بكل إجلال وتوقير.

وحدث أن خرجت من الجلسة لبعض شأنى غير متوقع أن يكون هذا الذى قلت موضع نقاش أو تعليق من أحد فوجئت بإسمى يتردد بين ردهات المجلس فى ناقل الصوت الذى يذيع الجلسة فى حجرات المجلس فأطفأت سيجارتى وسارعت إلى القاعة لأجد الأستاذ موسى صبرى يكمل كلمته التى لم أسمع أولها وطلبت الكلمة لأرد على ما سمعت منها ورددت ولا أحب أن أعيد ما قلت فمضبطة الجلسة كفيلة بذلك ، ثم فوجئت يوم الخميس بخطاب من الأستاذ سعد فخرى عبد النور منشور بجريدة الأخبار وبتعليق مفصل من الأستاذ موسى صبرى وجدت أنه أصبح من الحتم على

أن أفصل ما أجملت حتى أزيح عنه اللبس الذى عراه نتيجة الإيجاز والإشارة دون الشرح والإفاضه .

فواقع الأمر أننى حين تحدثت عما قبل ثورة ٥٢ لم أقصد ما سبقها مباشرة وإنما قصدت فترة من الزمن توغل فى أعماق التاريخ حتى تصل إلى أحداث ثورة ١٩ الخالدة .

فالذى لا شك فيه أن الديمقراطية فى هذه الفترة كانت موجودة وجودا فيه بعض النقص ، وكيف لدولة يحتلها محتل بجيشه وسلطاته وله فيها الناب والظفر والكلمة الأخيرة أن تتمتع بديمقراطية كاملة .

وقد كان الشعب المصرى حين ثار ثورته فى سنة ١٩١٩ ويحاول أن يزيح المحتل كله ولكن المحتل كان يزحزح أقدامه فى تثاقل وفى بطء مقيت ، وهو يملك القوة الغاشمة التى لا تقف أمامها قوة فلم يكن عجبا أن يقبل الشعب المصرى كل باب أو نافذة تصل بينه وبين الحرية الكاملة التى يقاتل من أجلها ويسعى لها سعيها وهو مؤمن بها كل الإيمان وحصلت مصر على تصريح ٢٨ فبراير ونتج عنه دستور ٢٣ وكان هذا أكبر خطوة نالتها مصر فى طريق الحرية ، وقد وضع الدستور جماعة من أكبر فقهاء القانون واعتبر العالم الدستور المصرى من أعظم الدساتير العالمية ولكن لابد لنا أن نذكر أن هذا الدستور قد وضع فى ظل الإحتلال .

ولذلك نجد فيه مادة لايمكن أن يقبلها شعب حر على الإطلاق وهى المادة التى تعطى الملك الحق فى إقالة الوزارة إذا وقع الخلاف بينهما وهى مادة جعلت الدستور متناقضا مع نفسه كل التناقض فكيف ينص فى مادة منه على أن الملك يملك ولا يحكم ثم يعطيه فى نفس الدستور حق الإقالة إلا أن يكون المحتل بجبروته قد فرض هذه المادة فرضاً حتى يظل الأمر فى يده

فإن حق الإقالة ما دام فى يد الملك ومادام الملك يدين فى بقائه للمحتل وحده فالأمر إذن أولا وأخيرا فى يد الإنجليز المحتلين وما أحسب أن حزب الوفد انتفع بشئ فى حياته جميعاً قدر النفع الذى أفاده من هذه المادة فإن رئيس الوزراء الوفدى لم يقدم استقالة إلا مرة واحدة على طول الحياة النيابية فى مصر ، أما فى المرات الأخرى فلم يكن يخرج من الوزارة إلا وقد أقاله الملك ، وكان الوفد يحكم ويرتكب ما يرتكب من أخطاء ويبدأ الشعب فى معرفته على حقيقته من تقريب للأصهار واستثناءات وتجاهل لمواد الدستور ثم تأتى الإقالة من الملك فتغسل عن الوفد جميع أخطائه وتعيده إلى شبابه الأول ويعود أغلب الشعب إلى الإلتفاف حوله ".

وهكذا أصبح الأمر كما قال الدكتور هيكل باشا أن الديمقراطية هيهات لها أن تصبح كاملة فى مصر وفى مصر احتلال وملك يخضع للإحتلال .

وفى ظل الإحتلال كان الخلاف بين الأحزاب اختلافا حول تصرفات وأشخاص ولم يكن اختلافا حول مبادئ فمبادئ الأحزاب جميعا كانت توشك أن تكون متطابقة ، وكانت المادة الأولى فيها جلاء الجيوش الإنجليزية عن مصر .

ولنعبر الآن من الحديث العام إلى الحديث عن الوفد منذ جاء على أسنة الحراب فى فبراير سنة ٤٢ الإنجليزية إلى أن أقيل فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ثم حين عاد فى سنة ١٩٥٠ ولست أفكر أن أتحدث عنه حديثاً مفصلا فإن المجال لا يحتمل هذا ولكننى أكتفى بأن أذكر الذين عاصروا هذه الفترة بالاعتقالات التى قام بها الوفد لعلى ماهر باشا وغيره لحساب الإنجليز وإسقاط عضوية بمجلس النواب عن مكرم عبيد باشا واعتقاله لحساب حزب الوفد . واختلطت مصالح الإحتلال بمصالح الوزارة الوفدية ولم

تتعارض وكانت الحجة عند المحتل أنه مشتبك فى حرب عالمية ولكن الوفد لم تكن له حجة . وأقيل الوفد فى سنة ١٩٤٤ ثم عاد بأغلبية ساحقة فى سنة ٥٠ .

ألم أقل لك أن الإقالة كانت تطهره أمام الشعب تطهيرا . وحين عاد حزم أمره أن يمالئ الملك بكل الوسائل وسمعنا عن النحاس باشا حين لم يكن له مطلب فى الحياة إلا أن يقبل يد الملك الطاهرة وقد كانت فى ذلك الحين أشد ما تكون تلوثا . وإن لم تكن هذه الواقعة صحيحة فقد سمعنا فى أمرها تشكيكا فالذى لا شك فيه ذلك التصريح الذى أدلى به النحاس باشا حين سئل عن شأن من شئون الحكم وكان الملك فى ذلك الحين فى كابرى فقال « إن كابرى قبلة يجب أن نتجه إليها جميعا » وهكذا جعل الملك قبلة وكعبة .

وصنع الوفد ما صنع بأعضاء مجلس الشيوخ من القمم الشامخة وطردهم وغير المضبطة ولو أننى لا ألومه كل اللوم على تغيير المضبطة هذا فمادام الإنجليز هم الذين أمروا فإنه لا يملك إلا الخضوع .

ولكن مهما يكن الأمر فإن الإنسان لم يكن فى هذا العهد بكل سوءاته هالعاً على يومه وغده وكانت العقوبة القصوى هى الإعتقال وكان هذا جميعه فى ظل ملك فاسد وجيش شرس أجنبى محتل .. ولهذا كان من الطبيعى أن يفرح الناس بقيام ثورة ٢٣ التى أعلنت أنها تقوم للمحافظة على الدستور .

ثم .. ويل لنا من ثم .. ألغى الدستور جميعا . فكان شأننا شأن من استعان بطبيب لينقذ مريضا . فإذا الطبيب يطلق الرصاص على المريض .

وخرج الانجليز . وكنا نظن أننا سنحتمى فى ظل حكامنا وقد أصبحوا لأول مرة فى تاريخنا من أبناء مصر دماؤنا دماؤهم وعرضنا عرضهم فإذا مصر تصبح وهى حرة من المحتل رعشة خوف ولوثة مذعور فالعرض مباح والدم مهدر وكل قيمة فى الحياة محطمة محترقة فهى هشيم وجف ماء الحياة وزاغت الأبصار وارتعدت الفرائص .. كل الفرائص . وحدث ما حدث ونزل بنا من الكوارث ما نزل حتى جاء المغفور له صاحب الأيدى الناصعة على تاريخ مصر أنور السادات فرد إلى النفوس الطمأنينة وإلى الوطن والعرب الكرامة وتوج حياته بالسلام .

ونحن اليوم فى حكم حسنى مبارك نحقق من الآمال ما هفونا إليه حين تخلصنا من الملك الفاسد ومن المحتل الغاشم . وما صبونا إليه من حرية لا مثيل لها .

فالمقارنة التى عقدتها إذن فى مجلس الشورى كانت بين ما كان قبل ٥٢ وما بعدها من حكم الطغيان .

وقد عرفت أن الأستاذ موسى صبرى قال فيما قال أننى ارتجفت غضباً . علم الله يا أخى موسى أن رجفتى كانت لك لا عليك . ومالى لا أرتجف وقد كانت الجرائد حتى فى حكم الوفد الذى أدينه اليوم تطلع كل يوم مليئة بالهجوم السافر على رئيس الوفد ووزارته وعلى الملك فى بعض الأحيان فى حين نفيت أنت من الصحافة جميعا لأنك تجرأت فكتبت نقداً لمذيعة فى التلفزيون . وهذا بعض ضئيل من كل فظيع مريع سفاح .

إن التاريخ الذى نذكره اليوم لم يصبح بعد تاريخاً وإنما هو واقع عشناه واصطلينا ناره ونعمنا فيه من حسنات . فإذ كنا نختلف فيه اليوم فإلى أى مصير هو صائر حين يصبح سماعاً لا عياناً . وذكرى لا واقعاً .. كان الله فى عون التاريخ .

المنافق الشجاع

شجاع غاية الشجاعة . جبان أشد الجبن .. يزأر كالأسد الأغلب الكاسر . ويموء كالقط الرعديد الذليل .. وله لكل حالة ملبس ولكل موقف وجه ولكل قوم مظهر ولكل جلسة نغمة .

يمدح غاية المديح فيبلغ من النفاق أحط النفاق وأرخصه ، حتى إذا خلا بمن يأمن شره ويثق أنه لن يمخض به الأرض أو يمزق منه الأوصال هاجم فى شراسة وعدا على كرام الناس فى وقاحة من لا حياء عنده . وفى سعار من لا عرض له .

رأيته مع صديق لى أجله وأحترمه . وهذا الصديق لا يقبل الضيم قادر دائماً على أن يرد العدوان بمثله إن لم يكن بأشد . رأيت المنافق الشجاع أمامه كقط ذليل يسوق له المديح وابلا بغير حدود ويتزلف له فى خسة وضراعة يوشك أن ينحنى على يديه يقبلها ظهرا لبطن ، ورأيت الصديق الذى أجله يخجل من المديح ، ويتواضع ويبحث عن شىء من الألفاظ ترد عنه عادية هذا المديح وكان الرجل الكريم يعلم أن رأى المنافق يبتعثه الرغب ويعلنه النفاق ، حتى أذن الله وانفضت الجلسة ثم لم تمض إلا أيام قلائل وجمعتنى والمنافق دعوة لم يكن فيها ذلك الذى أوسعه نفاقاً منذ أقل من أسبوع . وكانت الدعوة تضم السيدات والرجال ، وكانت جلستى قريبة من المنافق وقدم صاحب الدعوة المدعوين بعضهم إلى بعض وكان بين السيدات سيدة نجهل أن إسمها إسم الأسرة الذى يحمله الصديق الذى كان موضع التكريم والإجلال من المنافق الشجاع وما هى إلا لحظة حتى وجدته يسأل السيدة .

— ألك قرابة بفلان ؟

فقالت السيدة فى تواضع .

— إنه أخى .

وإذا المنافق الشجاع يقول دون أن يمسك لسانه بعض الحياء من وجودى أو بعض الأدب المفروض فى الحديث إلى السيدات .

— إنه أسخف إنسان عرفته .

وإذا السيدة تقول وقد وقفت عن مجلسها .

— إنه أخى وإنى أحبه كل الحب ولا أسمح لأحد أن يتحدث عنه فى غيابه وتستطيع أن تقول رأيك فيه له هو إن أردت أما أنا فاسمح لى أن أنصرف عن مجلس يذكر فيه إسم أخى بهذا الأسلوب .

وانصرفت السيدة عن مجلسنا فى أدب ودون أن يرتفع لها صوت أو يعلو منها حس ، وقد كان المنافق الشجاع يعلم أن السيدة لن تسمح لنفسها أن تفعل أكثر مما فعلت فهو يعلم من طول ما عاشر الحياة كيف يتصرف الكرام .

أما أنا فلم أطق صمتاً وسألته .

— قل لى أيها الرجل أليس الشخص المقصود هو نفسه الذى رأيتك منذ أيام قلائل تسكب عليه غدقا من المديح أوشكت أن تغرقه به .

ولكن للمنافقين فلسفة خاصة . ربما كانت فلسفة حقيرة مهينه ولكنها ترضيهم عن أنفسهم وتهب لهم الأمن والطمأنينة .. فإذا يقول لى .

— وماذا كنت تريدنى أن أقوله له ، لو أننى قلت رأيى الحقيقى لما أمنت أن يضربنى ضربة قد تودى بحياتى .

ومرة أخرى لم أطق صمتا .

– كنت تستطيع ألا تكيل له المديح أو الذم . وأنت تعلم أنه يعرف رأيك الحقيقى فيه لأنك تعلم أن رأيه فيك شر من رأيك فيه . أما وقد نافقت ما نافقت وعلى مشهد منى فكنت تستطيع على الأقل ألا تقول لأخته ما قلته الآن حتى لا أزداد احتقارا لك .

— ولكن رأيك لا يعنينى .

– ذلك لأننى لا أضرب الناس وإن كنت أعتقد الآن أن هذه قاعدة ينبغى أن أخرج عليها من حين إلى آخر . وعلى كل حال ما شأن أخته التى لم ترها إلا اليوم حتى تجرحها فى أخيها وهو غائب .

— أريد أن أقول رأيى .

– فإذا بلغه ؟

— واضح أنها سيدة فاضلة ولن تنقل إلى أخيها ما سمعته منى حتى لا تجرحه فالفضليات من السيدات لا يحببن أن ينقلن إلى الناس إلا ما يسعد النفس . فما بالك وهو أخوها الذى تحبه . لاشك أنها لن تخبره حتى لا تغضبه .

– وحسبت أنت الحسبة فى لحظات وأعلنت رأيك فى هذه الخسة إذن فاعلم أنى ناقل هذا الحديث إلى صاحبه .

– لو كنت أعرف أنك ممن ينقلون الحديث ما قلت الذى قلت .

— اسمع الحقيقة أننى كنت احتقرك احتقاراً شديداً حتى لقد كنت أحسب أنه ليس هناك من سبيل إلى مزيد لهذا الاحتقار .. ولكننى أهنتك فقد بلغت من المهانة مكانة لا يبلغها إلا أنت وأهنتك فقد نجحت أن تجعل احتقارى لك يزداد أضعافا مضاعفة أهنئك .

— شكراً .

ليس الصديق الذى كان موضوع المديح والهجوم نكرة فى الناس ولا هين الشأن بل هو رجل بعيد الصيت واسع الشهرة له شأن عظماء الرجال الكثيرين الذين يحبونه حباً عميقاً صادقاً . وله أيضا الأعداء الذين يبغضونه أشد البغض . ومن لايغيض له ولا رأى له . وهو صاحب رأى وهو يعلنه فى غير مداراة ولا تحايل وإنما هو يصدع به أعداءه فى علن الكرام وفى صدق أصحاب الرسالات لم يكن عجيبا إذن أن ينتقل إليه هذا الحوار جميعا من شخص آخر آثر الصمت فى الدعوة التى جرى فيها الحديث ، ولم يعلن أنه يعرف الشخص موضوع الحديث .

لقيت الصديق الذى أجله وسألنى فتأبيت أن أقص عليه شيئا مما حدث وعرف هو أننى أداور بالحديث لاأننى ولا أثبت فأدرك صحة ما بلغه فهو يعلم أننى لا أريد أن أكذب وهو يعلم أننى أربأ بنفسى عن النميمة والايقاع بين الناس . فلست بهذا ، فإذا الرجل يقول فى كبرياء .

– أنا لا أشكرك فمثلك أتوقع عنده ما قلت . أما هذا المسكين الذى تريد أن تستر عليه فاعلم أنه مفضوح بما ينشره على الناس . وأنا لا أغضب من أى إنسان يسبنى فى غيبتى فحسبى شرفاً إن أمثال هؤلاء يخشوننى ولا يجرأون على مهاجمتى إلا حين أكون بغير مشهد وحين يكونون بعيدين عن حضرتى .

وقلت فى صدق :

– وهذا ما أتوقعه عندك . وهكذا يكون شأن الكرام .

ومن الهدم بناء

في قديم الزمان منذ ألف عام ونيف قال المتنبي :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحكا كالبكا

والعجيب أن هذه المضكات تزداد على الأيام ارتفاعاً وتزداد دواعي البكاء فيها شدة وشناعة ..

ارتفع قوم بغير ضمير بعمائرهم .. وسارعوا فباعوها حتى يتحمل غيرهم البلاء كله متمثلا في ما لهم أول الأمر ثم متمثلا في حياتهم جميعا .

وكان من الطبيعي أن تصرخ مصر ويعلو منها الضجيج أن بين أبنائها أقواما تجرد إلى هذا الحد من الإنسانية بل وتجرد أيضا من بعد النظر لأن أدوات البناء من أسمنت وحديد لا تقبل الرشوة وتأبى أن تسكت على مايرتكبون ولا بد لها أن تعلن احتجاجها ليس على الورق وإنما هو انهيار وقضاء على أرواح وعلى مستقبل أقوام لا تفرق حين تقتل بين شخص وآخر وإنما هي تقتل الجميع في غير عقل ولا رحمة .. ولماذا ترحم قوم أقبلوا على شراء هذه الشقق دون أن يتحققوا من أن البناء قام فيها على أسس هندسية سليمة ورخصت ببنائه الجهات المتخصصة في إعطاء الترخيصات .. وحين يعلن الأسمنت والحديد رفضه سيصبح الملاك ومهندسوهم جميعاً مسئولين وهكذا تخلى عنهم بعد النظر أيضا ..

وحين أصبح انهيار العمارات ظاهرة .. وحين أصبح لا يقتل من يقتل فقط من أفراد وإنما تعدى ذلك إلى سمعة مصر التي تحتاج إليها لتعيد الطمأنينة الممزقة التي ورثتها عن أيام القهر .. تصدت السلطات لهذه الظاهرة وصدر القانون بهدم كل بناء قام بغير إذن ..

وبدأت الجهات التنفيذية تمارس فى تطبيق القانون .. فإذا بأقلام مصرية ويمسك بها أدميون من بنى الإنسان تصيح بالذين يطبقون القانون أن ما يفعلونه ظلم وطغيان .. وأن الهدم لا يستغرق إلا لحظات فى حين يحتاج البناء إلى سنوات .. وقد نسوا أن الذى حدث ليس هدماً وإنما هو بناء .. هم يهدمون بضعة طوابق ويبنون هيبة دولة بأكملها .

ما هذا الهراء أيها الأدميون .. أيبقى البناء حتى ولو أدى إلى قتل من فيه .. أيبقى البناء لتنهار فى كل يوم عمارة على ساكنيها وعلى سمعة مصر وكرامتها .

أتبقى العمارات لتتحدى القانون وتجعل منه أضحوكة .. أن بلداً لا يحترم فيها القانون بلد جديرة بأن تمحى من الوجود .. وأن شعباً يعيش فى بلدا بلا قانون شعب مشرد تائه يأكل الناس فيه بعضهم بعضا والشريعة بينهم السلاح والتقرب من ذوى السلطان ويومذاك يصبح الفرد فى هلع وفى حيرة مهلكة بلا حماية .

فالقانون وحده هو الحماية .. وأن الإبقاء على العمارات التى ارتفعت بغير إذن قتل للقانون وقتل لهيبه الحق ، وهيبة الدولة وحين تصبح الدولة بلاهيبة تسقط الحياة جميعاً ولا تستحق أن تعاش .

إن الذى أقام هذه العمارات أقامها على باطل فهى باطل ولا بد أن يسحق الحق والقانون كل ما هو باطل .. وإن قوماً سكنوا هذه العمارات هم واحد من إثنين إما جاهل لم يحاول أن يعرف كيف أقيمت هذه العمارات وهكذا يصبح مغفلا والقانون لا يحمي المغفل . وإما مغامر قامر بحياته وبماله راجياً أن تغضى الحكومة عنه عيناً إذا سكتت عنه الأسمنت

والحديد ولم ينهارا عليه وعلى أسرته وعلى المغامر أن يقبل كل ما ينتج عن مغامرته .

والدفاع عن هؤلاء من ملاك إلى مشترين من ملاك أو مستأجرين جريمة أضخم من جريمة المالك الغشاش السفاح .. لأن الدفاع عنهم دفاع عن تمزيق القوانين وعن قتل الناس وعن القضاء على سمعة مصر وكرامة القانون وهيبة الدولة .

وهاتان عمارتان قد سقطتا فى يوم واحد فى الإسكندرية والقاهرة .. وتزداد الكارثه فى كل يوم هولاً واتساعاً .. ونسمع وويل لأرواح الناس مما نسمع — أن التنفيذ قد أوقف فى بعض العمارات حتى تحكم المحكمة .. ترى هل الأسمنت والحديد عندهما خبر بالانتظار حتى تحكم المحاكم وهى التى تغص بالمتقاضين وهيهات أن تفرغ قبل وقت لا يعلم أحد مداه إلا الله سبحانه فى علياء سمائه .

وإذا كان الأسمنت والحديد قد بلغهما هذا الذى قيل فهل يستطيع أحد أن يسألهما إن كانا ينتويان الانتظار أم سينقضان على السكان بغير إذن من المحكمة أو من أى جهة أخرى .

ولقد يتصور بعض الناس أن يجرم المجرمون القتلة من أجل مزيد من المال وإن كان الذين يرتكبونه تمزيقاً لكل معانى الإنسانية .

ولكن كيف نتصور أن يدافع عن هذا أصحاب أقلام يريدون أن يقيموا من أنفسهم زعماء .. علم الله أن زعامتهم لن تكون إلا وبالا عليهم .. لأنهم لا يتركون عملا تقوم به الدولة إلا هاجموه فى شراسة حتى حين تحافظ الدولة على هيبتها وهيبة القانون فى وقت معا ..

وليس مقبولا أن يقال أن أزمة المساكن اليوم تدعو إلى التهاون فى تطبيق القانون .. فنظرة واحدة إلى هذه العمارات التى خالفت تجعلنا ندرك فوراً أنها لغير الذين يعانون من أزمة السكن وإنما هى للأثرياء الفاحش ثراؤهم وأغلبهم يريد أن يحسن بها مسكنه أو يتاجر فيها .. فأغلب هذه العمارات إن لم تكن جميعها من السكن الفاخر وليس فيها ما بنى ليواجه أزمة الشعب فى المساكن .. ومحاولة اللجوء إلى هذه الحجة رفع لشعارات على الهواء تعود هؤلاء الكتاب أن يرفعوها كلما وجدوا إلى ذلك من سبيل .

حتى وإن كان هذا على حساب مصر .. نعم وإن .. حتى وإن كان على حساب القانون .. نعم وإن .. حتى وإن كان على حساب هيبة الدولة .. نعم وإن .

لابد للمد أن ينحسر

ماذا أصاب السينما المصرية ؟ وأى شيطان هذا الذى سيطر على موضوعاتها ومؤلفيها ومخرجيها ومشاهديها فى وقت معا .

كيف أصبحت المواخير والحانات فى مصر هى تاريخ مصر .

وكيف أصبح الداعرات والراقصات وبائعات الهوى والقوادون هم أعلام مصر الخفاقة وهم الساسة والأبطال وهم المجد والفخار . .

أيتصور هؤلاء المؤلفون وأولئك المخرجون أن مصر ماخور كبير لا يمثله إلا هذه الحثالة التى تسحقها نعال من يتعاملون معها قبل أن تسحقها نعال الآخرين .

إننى بما أشاهده اليوم من أفلام وما أراه من إعلانات سينمائية أعتبر أن الدعارة قد عادت إلى مصر عودة رسمية مظفرة تحف بها مواكب الطبل والزمر والدعاية والإعلان .

وقد كانت قبل أن تلغى متخفية مستخزية إذا ذكر أحد أمرها ذكره همسا فى حياء .

ولكن الحياء سقط وأسفرت الدعارة عن وجهها المقيت فى أفلام الكتاب والمخرجين .

والعجيب فى أمر هذه الأفلام أنها حين ترتئم المخطئات لابد أن تجعل منهن ضحايا وأنهن الطاهرات العفيفات البريئات التى أرغمهن الزمان على ممارسة المهنة الوبيلة والأفلام بعد ذلك تدور كلها حول ظلم المجتمع لهاتيك الداعرات وكأنهن ما ظلمن أنفسهن ولا ارتكبن خطيئة ولا اشتركن مع من اعتدى عليهن فيما صار إليه أمرهن .

والذى نعرفه أن الزنا لايتم إلا بطرفين ، والذى يعرفه الناس أن أحدا لا يستطيع أن يصل إلى امرأة تأبى ذلك إلا أن يكون ذلك بحريتها الكاملة وما شاهدت فيلما إلا وجدت التى يريدون أن يجعلوا منها ضحية كانت تستطيع ألا تكون ضحية فى كل الظروف التى يفتعلونها افتعالا والتى يدبرها المؤلف فى سذاجة بالغة التهافت وربما لا أستثنى من ذلك إلا حالة التهديد والاغتصاب وتلك حالات نادرة كل الندرة ، والنادر لايصلح أن يكون قاعدة إلا أن يتاجر به المنتجون والمؤلفون والمخرجون .

إننى أتصور أن المنتجين والمؤلفين والمخرجين الذين يقدمون هذه الأفلام قد ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا تجار خطيئة ، وإذا كان تاجر الخطيئة يمارس تجارته متسترا فى همس فهم يمارسونها علانية يذيعون أنباء تجارتهم بكل وسائل الإعلان .

وإذا كان تاجر الخطيئة يمارس تجارته مع أفراد فهم يمارسونها مع جماهير وشعوب .

وإذا كان تاجر الخطيئة ساقط الحياء وضيعا فهم أشد منه فُجراً وأنكأ منه فحشا وأسقط حياء وأحط وضاعة .

أيدرى هؤلاء ماذا يصنعون بالفتيات وهم يعلنون عليهن ألا بأس عليك يا فتاة أن تخطئ فإنك ستعتبرين حينئذ شهيدة جار عليها الزمن ولم تجر هى على عرضها وعرض أبيها وأمها وشرف إخوتها وأسرتها جميعا .

أيدرى هؤلاء التجار ماذا يصنعون بتاريخ مصر وقد جعلوا معالمه الجغرافية المواخير والحانات وبيوت الدعارة ومعالمه التاريخية الداعرات والقوادين والساقطين والفاشلين والمنحرفين والشذاذ والمهترئين من البشر .

أيدرى هؤلاء ماذا يصنعون بمصر اليوم وهم يقدمونها إلى العالم كله على هذه الصورة النتنة وكأنها لم تلد من فتاة إلا الداعرة ولا من رجل إلا القواد والشاذ فنحن إذن لسنا أول دولة فى العالم العربى تصبح فيه المرأة على هذا المستوى الرفيع السامق الذى نشرف به اى بلد فى العالم نزوره .

إن المرأة عندنا شرف وعفة وملائكية وأمومة فى بيتها وهى فى مجالات الأدب فخار ومجد وفى ميادين العلوم رفعة واعتزاز لمصر جميعا وللمصريين بل للعرب بل للإنسانية جمعاء .

ومصر فى رجالها أعظم من أن نذكر فضلها ولاسبيل أن نحيط بعظمتها وبغناها فى رجالها . فإن غنى مصر الأول والحقيقى إنما هو بما تملكه من عظماء فى كل ميدان . هى رائدة الثقافة العربية العلمية والأدبية والفنية على السواء .

وهى التى تصدر اليوم الكفاءات الشاهقة من علمائها إلى أعظم البلاد تحضرا .

فلماذا يريدون أن يجعلوا مصر العالمية برجالها على هذه الصورة .

أكل هذا من أجل بضعة أموال يجمعونها . أوليس هناك من سبيل آخر لجمع هذه الأموال . أتراهم لو قدموا فنا لا دعارة فيه يخطئهم المال . أم هى نفوسهم وماركبت عليه من حب الاتجار بالخطيئة . أم هانوا على أنفسهم وهانت عندهم كرامتهم فهم يصرخون على ملأ العالم أنهم تجار خطيئة ويفخرون بالخزى . ويعتزون بالذلة . ويباهون بالفجور .

إن هناك دولا أوربية مازالت بها الدعارة رسمية ونشاهد أفلامها فإذا هى رفيعة المستوى فى موضوعها وفى فنها على السواء .

ومعروف أن الفن هو كيف تقول وأننا نرى أفلام هذه الدول إذا تعرضت لموضوع داعر فإن هذا يكون استثناء نادراً لايكون سمة ولايشكل موجة . ثم هم حين يفعلون يجعلون الداعر داعرا والشريف شريفا ولا يدافعون عن الخطيئة وكأنها هى سنة الحياة .

فإذا كان هذا فى بلاد ليس فيها ما فى بلادنا من تقاليد شرقية وتعاليم تقدس الحياة النقية والعرف ترى الشرف حياة والموت دون العرض أسمى مراتب المجد . فكيف سولت لهؤلاء المنتجين والمؤلفين والمخرجين نفوسهم أن يعصفوا فى شراسه ضاربة بكل مقدساتنا وتقاليدنا وتعاليمنا وأعرافنا أن أشد الأقوام عداء لمصر لا يستطيعون أن يسيئوا إليها كما يسيء هؤلاء المصريون ببطاقاتهم . الشياطين الكافرون الفاسقون بحقيقتهم وانتمائهم .

وأنا لا أطالب الرقابة . فواضح أنه لم تعد هناك رقابة . فإن اسم أى فيلم من هذه الأسماء كان كفيلا وحده بالرفض بادىء ذى بدء . وقد أحسن الوزير فعلا حين منع فيلمين ولكن الأمر أفدح من مجرد فيلمين . لقد أصبح الأمر ظاهرة ولذلك فإنى أطالب الجمهور أن يتيقظ لما يريد أن يصمه به هؤلاء الداعرون من إقبال على السقوط ومايريدون أن يصموا به مصر من خزى .

ولكننى واثق أن كل موجة إلى انحسار . وأن الجمهور إن أقبل على مثل هذا الهوان فترة فهو مرتد عنه من فوره . وفى البلاد التى يسمح فيها بالأفلام الداعرة أصبحت دور السينما خالية من عرض هذه الأفلام وانحسرت هناك الموجة لأن الجمهور الذى أقبل سرعان ما أصابه القرف وانصرف متعففاً أن يرى الإنسان وهو ينقلب إلى حيوان .

فيا أيها المنتجون ويا أيها المؤلفون ويا أيها المخرجون قريباً ستعرفون إلى أى منقلب أنتم ساعون ولن يخلف الله موعده .

نيام على غير مضاجع

من الناس أقوام مارسوا الكتابة عددا وأتاحت لهم الظروف أن تظهر كتاباتهم وأغلب الأمر أرغموا الظروف أن تتيح لهم الطلوع على الناس بما يكتبون فطلعوا ومرت الأعوام فما أحس بهم أحد فلا النقاد إعترفوا بهم ولا القراء أحسوا بوجودهم فكان طبيعيا أن يقفوا خارج الحلبة ليسبوا كل من فيها ويهاجموه فى ضراوة لا مثيل لها ، وبغير ذوق فنى وبغير إبداء أسباب فليس إلى الحق يهدفون ولا هم ينشدون العدل فيما يعيبون إنما بغيتهم الوحيدة هى أن يهاجموا آملين أن يحطموا المشاهير فى مظنة منهم كاذبة أن لو تحطم هؤلاء لن يبقى غيرهم فى الميدان ، ولو كانت بهم مسكة من عقل لأدركوا أن هؤلاء المشاهير غير قابلين للتحطيم لأنهم لم ينالوا شهرتهم بالحظ أو بالبساطة وإنما نالوها بموافقة الغالبية العظمى من قراء اللغة التى يكتبون فيها عربية كانت أو كانت غير عربية ولو كانت بهم بقية من ذكاء لأدركوا أن اختفاء هؤلاء المشاهير بالوفاة أو الصمت لن يتيح لهم أن يظهروا لأن الشعب حين قبل العمالقة قبلهم لأنهم عبروا عنه وحين رفضهم هم رفضهم لأنهم غير صالحين لمخاطبته ولم يرفضهم لأنه مكتف بكتابة فالشعوب دائما تحب أن يتعدد كتابها ومفكروها .

وهكذا لم يكن عجباً أن نجد هؤلاء الضائعين فى تيه الأدب يتخيرون القمم الشماء ليهاجموها محاولين أن يقضوا على ذؤابتها فإذا هم يتهاوون إلى سفحها وقد تحطموا جذاذا وتمزقوا خرقا .

وقد واجه طه حسين وشوقى والعقاد والمازنى وتوفيق الحكيم وعزيز أباظة ومحمود تيمور وغيرهم من العمالقة ألوانا من الهجوم شتى وأفانين من القذف بلغت فى بعض الأحيان مبالغ الوحشية الشرسة الطاحنه فما زادهم

هذا الهجوم إلا بريقاً وتوهجا وما ازداد المهاجمون إلا انطفاء وخفوت ذكر .

والرغبة فى الشهرة عند المهازيل تشكل نوعاً من السعار المجنون الذى يجعلهم يستهينون بكل ما يتصل بشرف الآدمية فنجد منهم من يحاول أن يحدث أى تفجير ليحدث به دويا وحتى ولو كان هذا التفجير سينسفه هو نسفاً حتى لا يبقى منه على شئ .

وليس يعنيه أن يصدم شعور الناس ويعتدى على مقدساتهم ويدمغ الكرامة بالهوان والنبل بالخسة وما أصدق المتنبى حين قال :

من يهن يسهل الهوان عليه .. ما لجرح .. بميت ايلام

فيجد واحد منهم يكتب كتابا لا يستحى فيه أن يذكر أنه كان لصا وتاجر متعة وذلك منه وصول من الحضيض إلى هاوية لم تعرفها البشرية فأصحاب هذا المهن فى مألوف أمرهم يسترونها على أنفسهم ولا يعالنون بها إلا حين تقتضيهم المهنة أن يعلنوا فما رأينا لصا يباهى بأنه لص ولا تاجر أعراض يفاخر بأنه يمارس تلك الصنعة إما أن ينشر هذا فتلك جديدة فى السفالة والانحطاط والهوى إلى غير قرار ومن عجب أنه بعد ذلك يظهر على الناس ويهاجم كل شريف فى الحياة حتى أصبح الشرفاء يعتبرون الهجوم منه وساماً لا يدانيه وسام وشرفاً يحزنهم أن يفوتهم .

ونجد آخرين يهون كل جليل فى حياتنا وكل سامق من تاريخنا القديم والحديث على السواء وهو — للأسف الشديد — مدرك عواقب هذا الذى يفشيه من آثار وبيلة تقع عليه أولا ثم هى بعد ذلك تثير نفوس الأغلبية الكاثرة من الناس فى مصر وفى الشعوب العربية كافة ولكن ماذا يهمه مادام هو قد أحدث التفجير الذى ينشده وليكن هو أول الضحايا وليكن التاريخ من بعض ضحاياه ولتذهب مشاعر الناس إلى الجحيم .

وإنى أحس أنه بما يصنع يريد أن ينتقم من البشر أجمعين ماداموا هم لم يكسبوه الشهرة التى أرادها لنفسه ولم ينزلوه من نفوسهم المنزل الذى يتوهم أنه حقيق به .

وآخرون كانت كتاباتهم هذاء لم يخطها إلا مهلوس مجنون لا يعى مايقول وكان من الطبيعى أن يعيا الناس عن فهمه ويعتبروا ما يكتبه لغة أخرى غير لغتهم وكان من الطبيعى أن ينصرفوا عنه كأنه لم يوجد .

وكان لا بد لمثل هذا وللآخرين من أمثاله أن يناموا ولا سبيل إلى نوم مع الشعور بالفشل والإحباط فهم إذن يحتالون على أنفسهم ويخادعونها عن الحق وينسجون من الوهم ما يجعلها تطمئن صاحبها أنه نابغة سبق زمانه وأن الذين أصابتهم الشهرة إنما اقتضوها بماء وجوههم وبما أنهم جهلاء يخاطبون جهلاء وبما أنهم تافهون لا يرتفعون إلى السماوات التى نحلق فيها نحن بأفكارنا ولو أننا نافقنا الناشرين وحاولنا إرضاء الناس بكتابه ماتستجيب لهم حواسهم الساذجة الفجة لأصبنا من الشهرة ما لم يصب أولئك المهازيل الذين يتصدرون الحياة الأدبية فى هذا الزمن النكد فكل زمان لا يشتهرون فيه زمن نكد وأن شهرتنا قادمة لا شك فى قدومها وينامون .

ولو أنهم لم يناموا وحاسبوا وهمهم حساب عقلاء لا حساب مهلوسين لتبينوا أن الشعوب لا تبغض أحدا قدر بغضها للمنافقين ولها فى كشفهم عيون راصدة لا تنام وليس يخفى عليها من أمرهم خافية وأن للشعوب عقلاء تسجل كما لا تسجل أحدث الآلات الإلكترونية وقد تنسى الشعوب ولكن لأنها تريد أن تنسى وهى حين تنسى يكون ذلك منها عن إدراك لا عن غيبة وعى أو غفلة .

وكم من نافق وهوى به نفاقه إلى أسفل درك فليس كل نفاق ناجحاً وإن نجح شخص ما بالنفاق فشل به نفسه مئات من الناس والمنافق قصير مدى الخطى منكمشة حياته هزيل نجاحه ومهما يبلغ بنفاقه من سلطان فهو عند الناس محقور الشأن لا وزن له ولا قيمة .

وإن كان النفاق سبيلا ممهداً فى عالم الوظيفة فهو طريق مغلق فى عالم الفكر والأدب والفن بعامة .

فقد يجد المنافق فى عالم الوظيفة من يبصقه إلى منصب ولكنه فى عالم الأدب والفكر ليس له إلا الناس ملاذا وهم وحدهم من يرفعون شأنه عليا أو يخسفون به الأرض ليكون موطئ نعال .

أما وهمهم أنهم سبقوا عصرهم فهو باطل بطلانا أصليا ليس له من زوال فإن الكاتب ابن عصره يستمد منه ويعطى له وبما هذا خلد الشعراء والكتاب على مدى الزمان فإن الأجيال حين تتسلم المشاهير بعضها من بعضها تتسلمها بعصورها وبالأزمان التى عاشت فيها وعبرت عنها وما كتب لها الخلود إلا لأنها كانت من مرايا عصرها ومن أصواته ولو أنها حاولت أن تعبر عن غير عصرها أو تكتب لغير زمانها لأصابها الفشل الذريع ولامتنعت الاجيال أن تتداولها إلى الخلود .

وبعد أفتراني قد أصبت بالإحباط قوما استكانوا إلى أوهامهم واطمأنوا إليها وانقضضت أنا على سكينتهم وأوهامهم فعصفت وأذعرت طائرهم وأسلمتهم إلى اليأس قد أكون ولكن البتر بالعضو الأشل أخلق وإن عليهم أن يفيقوا إلى حقيقتهم ويبحثوا عن عمل يتقنونه بدلا من أن يناموا بغير مضاجع على أرصفة طريق ليس طريقهم فهم فيه غرباء ولا أمل لهم أن يصبحوا من أهله اللهم بلغت اللهم فاشهد .

لابد لها من وقود

كريم هو الله رؤوف بعباده شفوق بما رحمة منه ، استطاع الإنسان عبر العصور وعلى مر الدهور أن يتحمل الآمه وأن يصبر نفسه على البلاء . تتداول عليه أيام النحس والسعود . والنحس من بعد سعود شر أنواع البلاء . فإذا هو صابر صادق . وتصدق عليه الآيات الكريمات «كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين» «سورة الدخان» .

ويذهب هؤلاء إلى الجحيم أو يغفر لهم ربهم فيوفيهم جزاءهم فإنه سبحانه هو العدل المطلق ولهذا فاليأس لا يداخل أبناءهم من رحمة الله ولايمسهم قنوط ويسعون فى الحياة سعيهم . منهم من يتبع الطريق الأقوم ومنهم من يحيد وجميعهم على شوك الحياة صابر . لقد خلق الله هذا الإنسان من قوة لا تماثلها قوة ومن ضعف لا يدانيه ضعف هو قوى حين تتصل أسبابه بالرحاب القدسى وحين يتجه بروحه إلى الملكوت الأعلى فإنه حينئذ يصبح وقد عجزت مغريات الأرض جميعا أن تلحق به .. قد تترجح خطاه فى أول الطريق وقد تراوحه من متع الدنيا أقسام تتخلج لها نفسه بين أقدام وإحجام حتى إذا سيطر على نوازعه وتملك أمره وزجر الدنيا . ازدجرت وأصبح هو أقوى ما عرفت البشرية .. إنه الإنسان الذى حمل الأمانة بيده أن يختار المتعة العاجلة واللذة العابرة والنساء والمال وكل ما يقدمه الشيطان من إغراء أو يخوض فى غير هذا ينظر إلى الآفاق العليا

من السماء وتصبح هذه الدنيا جميعا بكل ما يحكمه الشيطان فيها هباءة لاقيمة لها الإنسان سيدها وجبارها .

وهو هو نفسه عبد الله الخاضع له ، أخبت إليه وسجد مع الساجدين وسبح بإسمه واجداً فى عبوديته تسيده ، وفى خضوعه جبروته ، وفى إصابة كرامته عزته . وفى سجوده مجده وكبرياءه .

وذلك الإنسان بلغ ما بلغ بإيمان داخلى هو واحد من النجدين الذى هداه الله . وطريق من طريقين : وهو الطائر الذى فى عنقه ليختار حرا فى اختياره بين لذة سريعة فى الدنيا وبين متعة خالدة فى الآخرة ، ومتعة الدنيا حاضرة ماثلة يشهدها بكل حواسه يراها بعينيه ويشمها ويسمعها ويلمسها . ومتعة الآخرة إيمان فى النفس لايزيد على مجرد شعور لم يره ولم يشمه ولم يسمعه ولم يلمسه وإنما أدركه بقلبه . ثم أمعن فيه بعقله وملأت كلمات الله أقطار الدنيا حوله حين يقول سبحانه عز من قائل : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ، فإذا الإنسان المؤمن يصبح هذا العملاق السيد الجبار الخاضع .

هذا التسيد وهذه العبودية وذلك التجبر وذلك الخضوع هو مصدر سعادة لايعرفها إلا من كان مثله . وبهذه السعادة يقطع الإنسان طريقه الوعر الخشن بين أنياب البشر الحادة وبين أضراس الدنيا الفاتكة تغريه بكل فتنتها أو تذله بكل ظلمها ويظل هو ذلك السيد العابد عازفاً عن فتنة الدنيا ومتكبراً على إذلالها فلا تملك إلا أن تنحسر عنه هى خاضعة ذليلة .

يعمل فلا يعمل إلا فيما يشرف ويسعى فلا يسعى إلا فى النور . والناس أغلبهم لايحبون الشرف ولايحبون النور .

فقد أوهنتهم الدنيا أن يقاوموها وأذلهم سلطانها أن يخضعوها .

هؤلاء المساكين من الناس هم الفئة الغالبة . ضعاف . لا لأنهم لم يتسيدوا الدنيا ويتغلبوا على أنفسهم فإن هذا أمر شاق عسير لا يطيقه إلا من كان عاتى القوة فذاً عملاقا .

أما هم فمساكين لأنهم حينما يلقون بأنفسهم إلى أضراس الدنيا تظل تمخضهم بين نحس وسعود وبين مرتفع وحضيض وتمضغهم فتفقد نفوسهم احترامها لأنفسهم ويصبحون دون أن يشعروا فى دفاع الهول الوبيل وأى هول يلقاه إنسان شر من احتقاره لنفسه وبغضه لها واستصغاره لشأنها . هذا الإنسان الحقير هو شر عدو للإنسان الذى تمكن من الدنيا وحرمها أن تتمكن منه .

وقد يكون الإنسان الضعيف مالكا للمال لا يحصيه عددا ولسلطان ليس له أمد وقد يكون الإنسان القوى مقترا عليه فى الرزق وليس له من السلطان نصيب . ولكن وبعزة الله وقدرته يصبح الغنى الباذخ الغنى أمام هذا الفقير حشرة أو أقل شأنا . ويصبح ذو السلطان الشاهق العريض أمام من اختار سلطان الله متسولا يستجدى منه قبسة هينة معا يسعد به من راحة ضمير . وهدوء خاطر واطمئنان حياة . وثقة بالنفس ولا يستمدها إلا من ذلك الإيمان وتلك الثقة بالله الواحد القهار .

وتصبح الدنيا عند ذى المال والسلطان هى حياته الواحدة فهو يعلم أنه لو فقدها فالجحيم مثواه فى الناحية الأخرى . فهو أحرص ما يكون على هذه الدنيا والدنيا لا تذل أحدا قدر ما تذل حريصا عليها . فقد يزول ماله ويدمر عليه سلطانه وتصدق عليه الآيات الكريمة من سورة الدخان ولكنه يظل متشبثاً بالحياة وإن كان فيها يتسول المطعم أو كان فيها ذليلا عبداً للبشر

ولما يلقونه إليه من فتات ويحاول أن ينسى ولا يستطيع أن ينسى قوله سبحانه وتعالى « ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » « سورة الانشقاق » فهو يخشى هذا اللقاء فهو لم يعد له فى حياته شيئا .. كان فى فم الدنيا الجائعة أكلته وكان يخيل إليه أنه يأكلها وامتصته وكان يتوهم أنه امتصها حتى إذا أفاق إلى نفسه استبانت له الحقيقة . لم يبق منه إلا ما يصلح للحريق .

مسكين هذا الإنسان . حمل الأمانة وما كان كفؤاً لها والذى خلقه يعلم ضعفه بل لا يعلمه إلا هو . وهو سبحانه يمهد بالغفران طريق الخاطئين ويغرس بالرحمة سبيل الضائعين . ولايرفض فى رحاب رضوانه إلا المشركين الذين يجادلون فيه عن جهالة . ويصدون عن وحدانيته بإلحادهم وعن ملكوته بكفرهم أولئك هم التائهون حقاً . وأولئك هم وقودها .. وأنه لابد لها من وقود .

أغريب أنا إذن

مصرى أنا بكل نسمة هواء أنشقها . مصرى أنا بكل لحظة من لحظات حياتى ، مصرى أنا وهى رغد وسعادة وهناء ومصرى أنا وهى مهزومة ومصرى أنا وهى منتصرة ، ومصرى أنا وهى تفدى الإسلام والعروبة بدمائها الذكية وبحر مالها ، ومصرى أنا وهى سلام ومصرى أنا وهى محتلة بالإمبراطورية أو محتلة بحثالة البشرية وشراذم الدول ومطاريدها ومصرى أنا وهى تسترد أرضها جميعا مصرى أنا وهى مكبلة ومصرى أنا وهى حرة عزيزة كريمة على ترابها لعبت ، دمى كل نقطة فيه مصرية خالصة . تعلمت فى مدارسها وعرفت قريتها من أبعد أعماق قريتها وعرفت الشارع والحارة والعطفة والزقاق ، ليس فى مدنها مدينة لم أزرها ، زيارة عابرة أو زيارة متأنية . لم أغرب عن مصر فى حياتى أكثر من شهر فلغتى لغتها وتصرفى تصرف الخلص من أبنائها وإشارتى مطبوعة على جوار ، من إشارات أبنائها . لا أتصور أن إنسانا ما يمكن أن يكون مصريا أكثر مما أنا مصرى . لم أشعر فى حياتى بغير نبضها وما يعنينى فى العالم مجد إلا مجدها .

أنا بعض من أنفاس الليل والنهار بين ربوعها ، أنا ذرة من ترابها ، أنا نقطة من نيلها أنا ورقة من أشجارها أنا نبتة من حقولها أنا صدى الأذان فى سمائها . فماذا حل بى فى هذه الأيام ، لقد أصبحت وأنا ذلك الرجل أحس أنى غريب فى مصرى هذه التى أنا منها نفحة وهى منى كل أمى وكل أبى وكل زوجى وكل إبنى وكل بنتى وكل بيتى . ولكنى غريب فيها هذه الأيام أترى هى غربة عن مصر أم غربة عن الزمن . أنا غريب .. فعن أى المصدرين غربتى أهى غربة عن بلدى . أم غربة عن زمنى . لكم تمنيت أن

تكون غربة عن الزمن إذن فيشكرنى فى غربتى كل أبناء جيلى فى شتى أنحاء العالم ولكن كم أنا أسيف حزين . .

أنا غريب عن مصر هذه ولست غريبا عن الزمان أنا أقدر وأقبل ولا أعجب لمجرى الحياه فى شتى دول ومختلف أمصار ، أنا عنها غريب بدمى وبمولدى وبنشأتى . ولكن ما يجرى فى مصر اليوم جعلنى أحس فى كثير من لحظات يومى أننى غريب . فأنا بين واحدة من اثنتين كلتاهما أشد مرارة من الأخرى إما أن هذه ليست مصرى التى ولدتنى وإما أننى أنا لم أعد أنا الذى عهدت نفسى . أجلس أمام التليفزيون وأسمع كلاما يقولون عنه شعرا . وأنا رجل صناعتى فى الأدب والشعر أعرفه منذ نطقت الكلام وحفظته ورويته وصنعته . ليس ما أسمع شعرا ولا هو نثر وكنت قد تعلمت فى مدارس مصر أن الأدب هو البيان والبيان أهم ما فيه هو الوضوح . لا بيان فيما أسمع ولا وضوح إنه كلام لا أعرف كيف ركب صاحبه ألفاظه ليجعل منها جملا غير مفيدة هل ما أشاهد وأسمع جملة مركبة أو جريمة ترتكب ولكن التليفزيون المصرى الذى يحمل لواء الدولة .... الدولة المصرية يذيع هذا الكلام ... فأنا إذن غريب عن مصر . وأقرأ أخبار الناس فأجد النبالة قد رحلت عنا وأجد الطهارة أصبحت استثناء وأصبحت السرقة وخيانة الأمانة والاختلاس والإعتداء على أموال الشعب هو الأصل ... ليست هذه مصر .

لا شك أن لكل زمن لصوصه وناهبيه ولكنهم كانوا هم الإستثناء وكان الأصل هو الأمانة — فكيف انقلب الأمر كل هذا الانقلاب . كان الأمين على خزانة إذا مس منها حوكم سواء أعاد ما اختلس أو لم يعده لأن الجريمة تتم بمجرد تحويله المال الذى كان لديه أمانة إلى مال خاص له .

ولأننى أعلم اليوم أن الجريمة تسمط إذ هو أعاد المال الذى اختلسه إلى الخزانة . والكارثة أن هذا يحدث بحكم مجرى العمل اليومى وليس بحكم القانون الذى لم أكن أتصور أن يحطمه فى يوم من الأيام مجرى العمل اليومى . فأنا إذن غريب عن مصر .

اقتصاد مصر يدمر وتنصب عليه الأيدى العابثة من كل جانب والعمال لا يعلمون والإنتاج يتضاءل والتبجح يتسيد ولا عقوبة لمسئ ولا مثوبة لمتقن . ويختلط الكسول الجامد الحس الوقح بالنشيط ذى الحياء ويصبح كلاهما سواء فى المنح والعلاوات والترقيات . فأنا إذن غريب عن مصر . المتعلمون أشد جهلا من الأميين والمنارة الكبرى من الأزهر الشريف أصبحت جامعة مثل كل جامعات العالم وهى التى كانت منفردة لا مثيل لها فى العالم أو فى التاريخ ومن كرسيها الموصول بالعامود صنعت كرسيها الجامعات جميعا وتصدع حصن اللغة العربية وهدمت حصونها وأصبحت لغة القرآن غريبة مثلى فى بلد الأزهر الشريف وأحد الجامعات وعلمها الفرد وأسمع فى التلفزيون والإذاعة لغة غير التى أعرفها ... لا هى العربية التى تعلمناها ولا هى العامية التى نشأنا نسمعها وإنما هى شئ آخر حقير لا لون له ولا دلالة ولا مفهوم . فأنا إذن غريب عن مصر . وأرى الأفلام .. وويل لمصر من أفلامها دعارة وخدر وسكر وانحدار كل هذا بغير القصة التى تعودنا قراءتها ومشاهدتها على شاشات السينما . مصرية كانت الأفلام أو أجنبية وأسمع أرقام الايرادات وأجور الممثلين فأصيح وأصيح .. فأنا إذن غريب عن مصر . وأبحث عن مسارح الدولة فيقولون إن الممثلين الكبار نزحوا إلى حيث المال الوفير فى السينما والتليفزيون وأسأل وهل بدأ هؤلاء الممثلون كبارا أما كانوا شبابا شداة صنعوا مستقبلهم على خشبة المسرح ثم انتقلوا إلى سماء النجوم وحضيض المال — فلماذا لا يعمل المسرح بالشباب

الجديد المتخرج فى المعاهد الفنية والنصوص المصرية موجودة فى تاريخ المسرح المصرى وفى حديثه والنصوص العالمية لا تمتنع على أحد يستطيعون أن يعرضوها مترجمة أو ممصرة . لا أجد الجواب . وقد نشأت منذ أنا طفل لا يكاد يعى أجد فى مصر مسارح عددا . فأنا إذن غريب عن مصر . وأرى مسلسلات التليفزيون أشاهد منها ما يمثل فى الريف فأجد ريفا غير الذى عجنت فى جنباته كل جارحة من جوارحى .

إنه ريف لا أعرفه ولا يعرفنى .. لا هو إلى الدلتا ينتسب ولا هو إلى صلة بالصعيد يمت . ريف يصنعه المؤلف وفق هواه ويحسب أنه إذا أقلب القاف جيما على لسان الممثل فقد صنع الريف وإذا كانت الرواية فى القاهرة فالهول الأخذ والزيف المشين وكلنا يعرف القاهرة وما فى بيوت القاهرة أنها قاهرة أخرى غير تلك التى يرزؤنا بها المؤلفون فى التلفزيون . فإذا تغاضينا عن التضليل فى رسم مصر من ريفها إلى حضرها وحاولنا أن نبحث عن لمحة من فن أو ومضة أصالة من الدراما فسعينا خائب وبحثنا هباء وقد رأينا أفلاما مصرية غاية فى الروعة ورأينا مسرحا مصريا غاية فى الرفعة والأصل فى الفن أن يزداد على الأيام أصالة وشموخا وتفردا . والأصل فى الفنانين أن يزيدوا البناء الذى تركه لهم السابقون سموقا وعلوا . ولكن للأسف هدموا البناء القديم وما أقاموا مكانه شيئا . وما هكذا مصر .. فأنا إذن غريب . وأخرى لا تقل هولا عما يحيط بنا أن عضو النيابة هو وكيل النائب العام هو الرجل الذى أنابه الشعب ليحرك له الدعوى العمومية ضد كل من يعتدى على حق من حقوق أفراد الشعب وهو من باب أولى المنوط به تحريك هذه الدعوى إذا اعتدى شخص ما على قيم هذا الشعب وتراثه وثقافته . فكيف إذن يقيم وكيل من وكلاء النائب العام الدعوى على التراث الأدبى وهو جزء من تاريخ هذا الشعب .

إن وكلاء النائب العام محتم عليهم أن يعرفوا ما هو التراث الأدبي ومحتم عليهم أن يكونوا على وعي بجانب كبير منه . ترى هل فكرت النيابة العامة في هذا التراث وفي عدد الأجيال الضخم الذي صاحب فيه هذا التراث الشعب المصري ألم يفكر لحظة لماذا لم يقم واحد من زملائه السابقين على مدى مئات السنين بتحريك الدعوى العمومية طوال هذه السنوات أم يريد هو اليوم أن يصحح خطأ وقعت فيه أجيال النيابة المتعاقبة على مدى التاريخ أم تراه يبتدع في وظيفة النيابة العمومية بدعة جديدة . فيصبح وكيل النائب العام الذي هو وكيل الشعب سلاحا على الشعب بدلا من أن يقوم بوظيفته الأصلية فيكون سلاحا لصالح الشعب أنا لا أدري .

فأنا إذن غريب عن مصر وأخرى أدهى من كل ذلك وأمرّ . أرى الشيوعيين قد طفوا على سطح الإعلام المصري في شتى نواحيه ومجالاته وأوشكوا أن يصبغوا مصر المؤمنة الأصيلة بلون الدم . وقد عاشت مصر حياتها جميعا وهي مصر الأزهر حتى بعد أن أصبح الأزهر جامعة . وعاشت مصر من مشرق التاريخ دار الحضارة لا العدوان والحب لا القهر والإخاء لا التمزق . وإن تكن فترات قد مرت بها نضب فيها الحب وتسيد العدوان فقليلا ما كانت تمكث هذه الأوقات . وأنا من أكثر الناس علما أن الرئيس حسني مبارك رجل مؤمن عميق الإيمان الديمقراطية مذهبه . الإسلام دينه والحب ديدنه . والشرف رايته . إذن فما هذا الذي يحدث في الإعلام المصري .. أنا إذن غريب عن مصر .. وأستطيع أن أمضي في الحديث فلا أقف ولكنني أحس خنجرا يغوص في قلبي مع كل كلمة يخطها قلمي فحسبي وفوق الحسب ما انغرس في فؤادي من خناجر .. والله وحده هو الموئل وما خاب .

جاهلية جديدة

حين جاء الإسلام كان المجتمع العالمي كله يقوم الأساس فيه على القوة المادية الباطشة . فالسيد هو من يملك السلاح والمال والعبيد وكانت هذه الأعمدة للسيادة واضحة كل الوضوح في المجتمع القبلي الكائن في جزيرة العرب فالبطش بالإنسان هو المظهر الأول للسيادة وكثرة العبيد والمال هي المعالم التي ترفع الإنسان بين قومه والإنحلال الخلقي وانعدام القيم وفوضى الأمور هي السمات الأساسية التي تقوم عليها شئون الجماعة . وعبادة الفرد هي العبادة . وما كانت الأصنام حبيبة إليهم إلا لأنها كانت تنأى بالإنسان عن التفكير وتجعل المجتمع يقبل ما يرزح فيه من تعبد للأفراد . فما كانت الأصنام إلا أقنعة لهؤلاء السادة حتى يعبد الناس الأصنام في ظاهر الأمر بينما هم في الحقيقة يعبدون السادة الذين يحمون هذه الأصنام ويدافعون عنها بأرواحهم .

والشعر الجاهلي مليء بالأمثلة التي تؤيد هذا المذهب الذي يؤكد أن الفرد الغاشم كان هو الحاكم المطلق السيد الذي لايرد له أمر واسمع معي عمرو بن كلثوم في معلقته :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما تخر له الجبابر ساجدينا

وهذا المعنى تكرر في كل الشعر الجاهلي الذي نظمه شعراؤهم في الفخر .

وتلك عجيبة من العجائب . فما الذي يجعل الجبابر يسجدون للرضيع الذي لم يصنع بيديه شرفا ولا قدم لمجتمعه فضلا إلا أن يكون الجبابر

خائفين من قومه ذوى البطش والجبروت .. وربما قيل أن هذا الشعر كان تفاخرا كاذبا ولايدل على واقع الأمر . وهذا القول حق ولكن يظل هذا الشعر مع ذلك يمثل ما يهفو إليه أبناء المجتمع الذين ينطق الشعراء بلسانهم من جعل الناس وعلى رأسهم الجبابر ساجدين لقومهم مرتعدين منهم خائفين مرعوبين من سطوهم .

وكان من مظاهر السطوة كثرة المال وما كان المجتمع يعنى فى قليل أو كثير من أين يحصل صاحب المال على ماله وهكذا كان السادة يشترون الإماء ويجعلون منهم تجارة ويبيعون المتعة لمن يشتريها ممارسين بذلك أحقر ما يمارسه إنسان فى مفاهيم الفترة التى أعقبت ظهور الإسلام وكان الأثرياء السادة لايرون أى بأس أن يكونوا قطاع طريق يسرقون المال بالقوة ممن لا قوة له ولا حول ويعود قاطع الطريق بعد أن يرتكب جريمته ليصبح بكل وقاحة سيدا فى قومه يخر له الجبابرة ساجدين . وكانت المرأة متاعا لا أكثر حتى أننا نجد الدكتور هيكل فى مقدمة كتابه الخالد « حياة محمد » يقول أن المرأة فى عصر من عصور الجاهلية لم تكن زوجة لفرد وإنما كانت زوجة للقبيلة كلها وما كان على الذى يريد أن ينفرد بها إلا أن يغرس عصاه خارج خيمتها فيعرف أفراد القبيلة أن واحد منهم فى خلوة معها ويرتد عن الخيمة بما فيها ولا أقول من فيها فقد كان الذين بداخلها فى تقديرنا نحن حيوانات وما كانوا أدميين .

وتتم الخيانة إذا خلا بالمرأة واحد من غير أفراد القبيلة ويقول الدكتور هيكل أنه حدث . مرة أن اجتمعت القبيلة جميعا أمام خيمة امرأة لها فلم يجدوا أحد منهم غائبا فاقتحموا الخيمة واكتشفوا أن امرأتهم تخونهم فقتلوها هى ومن معها وهكذا كان المجتمع متحللا منهارا أبشع ما يكون

التحلل والانهيار وظهر الدين الجديد يصيح « لا إله إلا الله .... الله أكبر » إذن فالأفراد ليسوا آلهة وإذن لن يعبد الناس أفرادا من الناس وإذن لاسادة هنالك ولا عبيد وإذن سيستلب الدين الجديد كل مظاهر السيادة التي يرتع في نعمائها السادة الذين يتاجرون في المتعة والذين يغتصبون أموال الناس وكراماتهم افكا وبهتانا وعنوة بلا حق لهم فقد كان الحق غريبا في دنياهم يكاد لايجد له مأوى إلا عند قلة نادرة هي التي سارعت إلى الإسلام أول من سارع وإذن فلا تجارة في أجساد البشر ولا كسب من بيع المتعة وإذن فلا اعتداء على أموال الناس ولا عدوان على كرامتهم ولا على مقدراتهم . ويوغل الإسلام في تحطيم سلطانهم فيسوى بين الرجل والمرأة في الحقوق ويجعل الذمة المالية للمرأة منفصلة عن الذمة المالية للرجل ويحدد حقوقها في تفصيل لم تعهده البشرية من قبل إذن فالعتاة المستكبرون لن يستطيعوا حتى أن يمسوا أموال زوجاتهم . ما هذا الدين ومن أين جاءهم ليقضى على كل ما يلغون فيه من دماء البشر.

ويزداد الدين وضوحا وتتوالى آياته أن فضل الإنسان على الإنسان لايكون إلا بتقوى الله والإخلاص في عبادته وحده لاشريك له والتصدر في عبادته وحده لاشريك له والتصدر في المجتمع يكون بالعطاء لا بالأخذ أو النهب والعطاء لايكون بالمال فحسب وإنما بالنفس وبالمعاملة وبالتحية ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه لوال له هو أبو موسى الأشعرى . أس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمع شريف في حيفك ولاييأس ضعيف من عدلك . ويرن هذا الخطاب في سمع الأجيال حتى يصبح في زماننا الأخير واحدا من أسس القوانين العالمية وماله لايكون وقد حرص فيه أمير المؤمنين أن يحاسب القاضي أو الوالي

نفسه فى تامة وجهه وفى الجهة التى يتسمتها هذا الوجه فلا يقبل على شخص ويعرض عن اخر يالهوان المجتمع الجاهلى إذن ويالضيعته إن الإسلام قد قلب كل الموازين وسحق كل العرف الذى كان سائدا كما قلب الأصنام وسحقها إن هذا الدين الذى صنع ذلك جميعه فى فترة من أقسى فترات التاريخ على الإنسان سواء كان هذا الإنسان فى الجزيرة يحيا أم كان يعيش فى مكان من أطراف المعمورة بل لعل الأمر كان أشد وأنكى فى فارس وبلاد الروم وهما الإمبراطوريتان اللتان كانتا على قمة عالم ذلك الزمان ولذلك لم يكن عجيبا أن ينهار سلطانهما أمام مبادىء الإسلام البالغة السموق .

ولكن ماذا حدث بعد ذلك أما الإسلام فقد اشتد عوده وأصبح يكتسب مع مرور الزمان قوة وعنفوانا ويتجدد جديده بالانتشار وبمقارنته بجميع النظم الأخرى التى تحكم المجتمعات ولكن ويالهول لكن هنا عاد كثير من المسلمين إلى الجاهلية الأولى . وعاد الاتجار بالمتعة يتسيد مجتمعات كثيرة وأوشك تاجر المتعة أن يعلن عن بضاعته فى وسائل الاعلام الحديثه التى تنطلق الكلمة فيها فإذا هى تتردد فى أسماع العالم أجمع وسقط الحياء عن هؤلاء التجار ويوشك بعضهم أن يباهى بتجارته .

وعاد المال إلى التحكم فى المجتمعات الإسلامية فهو السيد الذى لا سيد غيره وأصبح القوى هو الذى يأخذ لا الذى يعطى وأصبح الرفيع المقام هو الذى ينهب لا الذى يعدل .

وتفجرت الذرة فإذا السلاح هو أداة المال فى التحكم وفى وضع الأمم فى منازلها التى يختارها لها المال بمعونة من السلاح وحاربت الدولة المسلمة

الدولة المسلمة وفشا فى الدول لعربية سرطان حاكم لايسمع عن حرب إلا زج بنفسه فيها يعين من يحلو له أن يعينه بلا فكر أو تدبر أو نظر إلى صوالح دولته أو جماهيريته كما شاء أن يسميها فى جنون أخرق مضحك مبك فى آن معا .

وانقسمت جماعات الفدائيين على بعضها البعض وحارب الأخ أخاه وكلاهما نبت قضية واحدة وهب حياته لها ثم عدل عن ذلك وسفح دماء نفسه من أجل وهم وبلا مبدأ جلى ولا سبب فيه لمحة من منطق .

لقد عاد مسلمون كثيرون إلى جاهلية أخرى جديدة هى أسوأ من الجاهلية القديمة وأعظم رزءا من كل ما واجهته المجتمعات الإسلامية على مر العصور .

ولكن الإسلام أقوى وهو قادر أن يرد الغاوين إلى رشاد والصابئين إلى مستقيم الصراط والله غالب على أمره إلى أبد الآبدين .

الله ... الله فيم تكتبون

يبدو أن عودة الحرية بعد غيبة طويلة جعل معالمها غير واضحة . وألقى على سماتها ظلالا من ضباب حتى أصبح بعض الكتاب يخلط بينها وبين الفوضى الغوغائية .. وراح هؤلاء الكتاب يبحثون لأنفسهم على حساب الحرية عن بطولات تدعو إلى الأسى . والأسف والحزن . فما هم بكتاب صغار ولاهم فى حاجة إلى هذا النوع المخرب من الكتابة ملقين بمستقبل مصر إلى جحيم اصطلوا بسعيره أكثر مما اصطلينا .. وكواهم لظاه أكثر مما اكتوى به غيرهم .. وأحرقت نيرانه سنوات غالية من حياتهم .. وقد كنت أتصور أى شىء إلا أن يطلع علينا هؤلاء الكتاب بدعوة إلى الثورة .. والدعوة منه موجهة إلى فئات هى أبعد ما تكون عن حب الوطن أو مراعاة الله أو تحسب الضمير .. فبعض هذه الفئات ينتمى بولائه لغير مصر . وينتمى بعقيدته لغير الله بحكم المذهب الذى يدينون به .

وبعض منهم آخر كانوا السوط فى يد الطغيان وكانوا النار المحرقه وكانوا المشاركين فى الاعتداء على الأعراض والأموال والأرزاق .

وكانوا هم المعينين على خراب مصر التى مازالت تعانى آثاره حتى اليوم أتلك هى الحرية .. علم الله أن الحرية براء منهم إلى يوم الحساب ..

أما الفئة الأولى فهى تركب خيول الحرية والديمقراطية وإطلاق الرأى جاهدة أن تسعى بها إلى الحكم ويومئذ لا كان هذا اليوم ولاشهده الوطن أبدا — فلا حرية هناك بل القهر والقتل وسفك الدماء وكتم الأنفاس وإطلاق الفساد وإعدام الدين . وإعلاء الإلحاد . والانتماء إلى الشيوعية

العالمية التى لاترى لأحد حقا فى أن يكون وطنيا ولاتسمح لصاحب دين سماوى أن يعبد الله .

وأما الفئة الأخرى فهى الفئة الباغية التى ضرب الخبث فى تاريخها فهى الفساد والإفساد والقتل والتعذيب وتحطيم القيم وهدم كل ماهو سامق نبيل فى حياة الإنسان .

عجيب مذهل أن يدعو كاتب مثل هذه الفئات أن تثور .. ومن أجل ماذا ... من أجل الحرية .. يالك من مظلومة أيها الحرية .. يركبك الراكبون ليقتلوك .. ويصيح بك الصائحون ليكتموا أنفاسك .. ويرفعوا أعلامك الوضاحة المشرقة ليمزقوها ويحرقوها فإذا هى ذرات من رماد أو هشيم .

ويصيح الكاتب الذى أربأ بقلمى أن يذكر اسمه حفاظا منى على كرامته وقدره . أن الانتخاب بالقائمة النسبية عدوان على حرية الشعب وقمع للديمقراطية واعتداء على قدسيتها .

ولا أدرى من أى مرجع دستورى جاء بهذا الرأى الساذج إلا أن يكون الكاتب يريد أن يصيح فى غير ماداع للصياح ويتظاهر بالغضب من أجل الديمقراطية دون أن تكون الديمقراطية غاضبة ولا رافضة ولا هى تشعر أن القائمة النسبية تمس قدسيتها من قريب ولا بعيد .

وقد كنت أرجو — والكاتب ليس هين الشأن — أن يرجع إلى المراجع الدستورية ويتحرى الأمر قبل أن يجرى قلمه بما جرى به . فليس الأمر صياحاً ولا يكون الكسب فى ميدان الرأى للصوت المرتفع ... ولا للضجيج الفارغ الخالى من البحث .

فليس الأمر هتافا وإنما هو علم ودراسة وتعمق وتفهم والنظرة العاجلة البريئة من الهوى والبحث عن بطولة زائفة تدرك أن الانتخاب بالقائمة النسبية تعمل به دول ديمقراطية تعتبر من أعظم الدول فى هذا المضمار وحسبى أن أذكر سويسرا وألمانيا الغربية والبلاد السكندنافية وغيرها كثير .

وأنا من الذين يرون أن الانتخاب بالقائمة فيه تحضر ينبغى لمصر أن تسعى إليه .. فالاختيار فى الانتخابات بالقائمة النسبية يكون للآراء والمبادىء والأفكار ولايكون للأشخاص .

وهذا يجعل الناخب يدرس الآراء وينتخبها ولايعطى صوته للشخص لمجرد صلته به سواء كانت هذه الصلة متمثلة فى قرابة أو صداقة أو منفعة ... وفى ظل هذا الانتخاب المعتمد على القائمة تمحى تماما أى مظنة لأى صلة بعيدة عن المصلحة العامة ولايكون هناك مجال لما يعرفه الكاتب تمام المعرفة ولما يعرفه المصريون جميعا من وسائل انتخابية بعيدة عن النزاهة كل البعد .

والأصل فى النائب أن يكون نائبا عن الدولة كلها وليس عن دائرته فقط .. ولكن واقع الأمر يجرى على عكس هذا تماما .. فالنائب المسكين مشغول ليله ونهاره بتعيين أبناء الدائرة ونقلهم وترقية أقاربهم وإدخال أبنائهم للمدارس والحصول على استثناءات لايحظى بها أفراد الشعب الذين لايكون نائبهم بهذا النشاط الذى لا أعتبره أنا وطنيا بأى حال من الأحوال .

والنائب فى الانتخاب المباشر يظل طوال فترة نيابته وعينه على الدائرة وأعيانها وأصحاب الجاه والسلطان والأصوات فيها فإن أرضاهم فقد

ضمن النجاح وإن عجز فالويل له والثبور والسقوط فى الانتخاب والخروج من رحمة الله .

ولست أنسى ذلك النائب الذى أغدق على أفراد دائرته من الأموال العامة حتى اتهم وقدم للمحاكمة وجاءت الانتخابات والقضية التى تتهم ذمته أمام القضاء فإذا الهتافات فى الدائرة تكتسحها .. حرامى .. حرامى لكن بنحبه .... وينجح المرشح المشكوك فى نزاهته نجاحا منقطع النظير ..

أيرضى الكاتب عن هذا .. أيرى أن الانتخابات فى مصر على ماهى عليه الآن تتيح الفرصة للعالم والمثقف أم هى تتيحها لأقرب المرشحين إلى الناخبين وأكثرهم خدمة لمطالبهم التى غالبا ما تكون استثناء وخروجا على القانون واعتداء على عدالة الفرص ..

أيستطيع أستاذ فى الجامعة يحتاج المجلس التشريعى إلى رأيه وعلمه ودراسته وممارسته أن يقترب من دائرة انتخابية وينجح فيها .. ومن أين له هذا وهو مشغول بدراسته وبقضايا وطنه يتعمقها تعمق أستاذ عالم ... أنه إذا رشح نفسه يضمن السقوط الفادح إن شاء الله وأغلب الأمر أنه لن ينال مائة صوت من آلاف الناخبين ..

أيستطيع مثقف أن يرشح نفسه .. أيستطيع طبيب أو مهندس أو محام أو اقتصادى ... هيهات إلا أن يكون قد تنازل عن كثير من الوقت الذى كان يجب أن يكرسه لعلمه ليخدم مصالح الأفاد فى دائرته وأنى لأعلم أنه بين أعضاء مجلس الشعب اليوم وفى كل مجلس أساتذة عظماء ، وكان فى مجالس قبل الثورة ساسة عباقرة ولكنهم فى كل المجالس كانوا قلة نادرة ومصر اليوم تحتاج أن تكون مجالسها التشريعية زاخرة بكنوزها الثقافية ..

فهى اليوم أشد ما تكون حاجة إلى علم العالم وجرأته فى الحق وقدرته على أن يعلن الرأى فى سبيل مصر لا من أجل أشخاص فى مصر.

والانتخاب بالقائمة النسبية لن يبعد الموجودين اليوم ، فكل حزب لايمكن أن يستغنى عن النابهين فيه ولكن المؤكد أن عدد النابهين سيزداد وتصبح المجالس التشريعية قادرة على أن تواجه الأزمات التى تعانيها .

فيا أيها الكاتب رفقا بمصر ورفقا بالحرية ورفقا بالديمقراطية. واتق الله فيما تكتب .. فإن الكاتب أولى الناس بأن يخشى الله ولاء لوطنه ورعاية لخلقه وشكرا لرب العرش أن حمله أمانة القلم .

الثور المذءوب !

سعار أصاب الرجل منذ البواكير الأولى من حياته أنفق عمره يتعلم لغات غير لغته العربية وله من الوقاحة ما يحاول به أن يكون أديبا فى اللغة العربية وانتهت حياته أو أوشكت ولكن المسكين فشل أن يكون بين قومه أديبا وفشل أن يكون فى اللغات التى تعلمها وأتقنها شيئا مذكورا أوغير مذكور .

إنه ثور أصابه سعار الذئاب المفترسه يريد أن يحطم الحياة من حوله ولكن لأنه ضئيل القدر هين الشأن حقير النفس وضيع الفكر لم يحطم إلا نفسه .

هم أول ما هم باللغة والتراث العربى وراح يحارب كل ما هو أصيل فى أدبنا وتراثنا ونظره الكليل المنحرف مصوب على أن اللغة العربية هى لغة القرآن وهو يظن بما ركبت عليه نفسه من اجتماع الثور والذئب أنه يستطيع أن يحطم اللغة ليبعد الناس عن القرآن وعن الدين واستقبله فيما تكالب عليه الفشل الوبيل وأحس الناس بما فى هجمته من سعار فرفعوا المصاحف على الرؤوس وألجموه بما لا يطيق وانهالوا عليه رجما فإذا الثور فيه والذئب جميعا يتمخضان عن كلب أجرب يضع ذيله بين فخديه الخلفيتين ويسارع فى تلصص المجرمين يعدو باحثا عن مخبأ أمين يلعق فيه جربه وجراحه ويصمت حتى يهدأ ما ثار من الناس وحتى ينثنى عنه الراجمون وينساه الذين يقولون لا إله إلا الله محمد سيد الخلق رسول الله .

فإذا هدأ الضجيج عاد الميدان مره أخرى يحاول فى غباء الثور وفى سعار الذئب أن يبحث عن قنص آخر بعد أن عزه أن يهاجم لغة القرآن ورأى بشاله بصره ومريض بصريته أن يهاجم من يجله المسلمون من عمالقة العلماء وأشراف الفقهاء وراح يرمى عليهم سخائمه ويختلق عنهم تهما لم يسمع أحد أنها يمكن أن ترق إلى أعتابهم . ولكن ذنبهم الوحيد أن العرب المسلمين يذكرون أسماءهم فى إجلال وإكبار وتقديس .. وذنبهم الأكبر عنده أن كل الفقهاء الذين جاءوا بعدهم تتلمذوا عليهم أو على تلامذتهم . بل إن أعلام الوطنية والإخلاص القومى بأفكارهم إلى تعاليمهم . وهذه ذنوب عند الثور المذءوب لا غفران لها . فماذا عليه لو أنه صدم فيهم مشاعر الجماعة وحاول أن يزيل هذه الهالة عن أفذاذ لم يذكرهم التاريخ إلا بما يشرف الرجال ويرفع صيتهم على أحقاب الزمان .

ومرة أخرى تداولته الحجارة وانهال عليه المسلمون والعرب والوطنيون بسهام الحق يردونه عن قوم يكنون لهم الاحترام والتوقير . ويلعنونه .

ويحاول الثور المذءوب أن يلجأ إلى حرية الرأى . وإلى أن كل إنسان ينبغى أن يتمكن من إبداء رأيه مهما يكن شأن هذا الرأى وهو قول حق ولكنه يستر عند هذا الرجل بالذات باطلا فادحا . فأولئك الذين يجرح مشاعرهم بهذه الوحشية ويسب لهم أعلام دينهم لا يستطيعون أن يمنحوا أنفسهم الحرية فى مهاجمة ما يقدسه هو وأمثاله من الذين يحاولون أن يحطموا المساجد وأشياخها على رؤوس مرتاديها ومريديهم لأن ديننا ينهانا أن نثير الفتن بين الناس . والفتنة عندنا أشد من القتل بينما هى عند الثور المذءوب هدف حياة ونشيدة عمر وهب نفسه لها لا يريم عنها ولا ينثنى .

وبلغت به الوقاحة أن هاجم القرآن نفسه وحاول أن يرد آياته إلى عصور سابقة عليه وحاول أن يفسرها وهو أبعد ما يكون عن دراسة أعماقها أو لغتها أو مفاهيمها أو أسباب نزولها .

والحرية هي كرامة الإنسان ولكن من قال أن الحرية هي تحطيم الأديان وامتهان كرامة الجماعة . والاعتداء على مقدسات الشعوب وما آمنوا به .

فصلة الإنسان بربه صلة لا يعلمها إلا الإنسان نفسه وعالم الغيب والشهادة والاعتداء على هذا الحرم تحطيم للحرية نفسها ألا أن تكون الفتنة هي بغية المعتدى والوقيعة بين الأديان هي هدفه الذى يتغياه ويرصد حياته لبلوغه ومرة أخرى يفر الثور المذءوب كلبا أجربا يلوى ذيله بين فخذيه ويتلمس مخبأ يرد عنه عاديات الهجوم .

ولكن هل من ينتهى .:. هيهات .:. إذا كان قد خاب فاله وحبط مسعاه مع الدين وجها لوجه ومع فقهاء الدين بالإعلان فماله لا يحاول أن يهاجم شعراء العربية وكتابها أجمعين ويجعل من ذكراهم عفنا وحينئذ يقول هذا رأيي وما على من بأس أن أرفض كل هذا الشعر وكل الأدب وهذا حقه لا شك فى ذلك ولكن كشأنه يستر به باطلا حقيرا .

فإن الناقض حين يرفض شاعرا عملاقا أو كاتبا شامخا يتعين عليه أن يذكر عيوب هذا الشاعر أو ذلك الكاتب وما الذى يدعوه إلى رفضه ولماذا هو أكذوبة فى أدبنا وإلا كان الرفض وليد أغراض أخرى وخبيئات نفس مريضه ترمى برفض الشاعر أو الكاتب إلى رفض اللغة التى أكبرها هذا الشاعر أو ذلك الكاتب فأكبرته والذى أكرمته ورفعها فرفعته .

إن الأفذاذ من شعراء الأمة وكتابها هم تاريخ أدبها وهم الرايات الخفاقة التي تسافر عبر الأجيال تحمل الخلود لبلادهم على مر العصور وتحمل أجيالهم على أعناق الزمن إلى سائر الأجيال .

وقد كان تشرشل الزعيم الإنجليزى على وعى عظيم بشأن الشعراء حين قال لو لم يكن لبريطانيا فضل إلا أنها ولدت شكسبير لكان حسبها .

وما زال الفرنسيون يتيهون فخرا بكورنى وراسين وهيجو وبودلير وبكتابها من أمثال بلزاك ودوديه وأناتول فرانس وغيرهم وما زالت ألمانيا ترفع علم جيته وزفايج وعظماء شعرائها خفاقا على كل الأجيال وكذلك تفعل كل الدول .

فما بال هذا الثور المذءوب يريد أن ينكس أعلام العمالقة من شعرائنا وكتابنا ويرفض أى شاعر أو كاتب لم يشهد هو ميلاده ولم يعلن هو شاعريته ويمنحه هو صك الوجود إلا أن يكون متشبثا بتحطيم لغتنا فى وهم منه كبير أنه يستطيع أن يحطم بها ديننا وقرآننا . ولكن ربنا قال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وهو طبعا لا يؤمن بما قال ربنا . ولكن ألا يؤمن بما تم فا وبما يرى من أن القرآن بقى ألفا وأربعمائة سنة ونيف لم يتغير منه حرف واحد ولكن على قلوب إقفالها وعلى البصائر منه مغاليقها . فليمكر ما شاء له المكر فإنا نحن المؤمنين نعلم كل العلم إن الله خير الماكرين .

المحافظات وفلسفة الإعلان

خرج علينا العالم الغربى بنظرية أدبية ذات أسماء كثيرة منها العبث ومنها اللامعقول وكلها تؤدى إلى معنى واحد هو البعد كل البعد عن المنطق والعقل .

وسار فى ركب النظرية كثير من شبابنا ووقع فى أحابيلها جيل كثير بالغ فى الإعجاب بها حتى لقد أنشأ بعضهم مجلة خاصة لهذا العبث لم تستطع أن تقيم فى الحياة أكثر من عددين أو ثلاثة ثم اختفت تماما . وأذكر أننى حاولت أن أفهم شيئا من هذه المجلة فاستعصى علىّ الأمر . ولكننى كنت أشاهد كتاب هذا اللون يقرأون لبعضهم البعض ويتبادلون عدم الفهم مع تبادل الإعجاب .

وقد كتب فى هذا الشكل أستاذنا توفيق الحكيم ونجيب محفوظ فجنحا إلى طريق آخر فقد استطاعا أن يجعلا المعنى الإجمالى لأعمالهما واضحا وإن كانت سطوره غير واضحة . وبهذا وصلا إلى المعقول عن طريق اللامعقول . وقد أغرانى هذا الذى صنعاه فكتبت فى هذا الشكل قصتين أو ثلاثا لا أذكر .

وطغى هذا الشكل طغيانا كبيرا على المسرح وكثرت الأعمال فى ميدانه وتكاملت له مدرسة .

وكان لى فيه رأى : أنه يصلح أن يكون موضوعا لعمل أو اثنين أو ثلاثة ولكنه لا يستطيع أن يكون نظرية أدبية ثابتة تستمر على مدى أجيال . وأحسب أن ما توقعته قد حدث فعلا وماتت النظرية وعدل عنها

روادها بعد أن احتانت من حياة الشباب فترة غير قصيرة من حياتهم الأدبية .

وبحمل النظرية فيما أحسب أن هذه الحياة عبث وأن التعبير عن العبث لا يكون إلا بالعبث . وكما ترى تصلح هذه القالة أن تقال وتسمع مرة أو اثنتين أو ثلاثا . ولكنك إن ظللت تقولها فى كل عمل عزف عنك الذوق الأدبى ورفضت نفوس المستقبلين أن تستجيب لك .

وهكذا ماتت النظرية حتى لم يعد أحد يسمع عنها شيئا .

ماتت النظرية فى أدب القصة والرواية والمسرح واتجه روادها إلى الأعمال الأدبية المعقولة . بل لقد بالغ بعضهم ورضى أن يكتب الرواية البوليسية وهى أقل الروايات شأنا فى ميزان الأدب وارتأى هذا البعض أن الرواية البوليسيه أكثر قيمة بالنسبة إليه وللقارئ جميعا .

ماتت النظرية إذن قبل أن تعيش وانصرف عنها كتابها مادام الكتاب توقفوا عن كتابتها فالنتيجة الحتمية أنها أصبحت بلا قراء . فلا يمكن عقلا أن يكون هناك قراء لشئ ليس له كتاب . وربما كان هذا القول يعكس مثالا رائعا لأدب العبث وقد رأينا فى ظل النظرية من يقرأ ورقا أبيض لا كتابة فيه ، أو ساعة بلا عقارب أو غير هذا مما لا يسيغه منطق أو عقل .

ماتت النظرية فى الفن الأدبى ولكنى أراها ما تزال تعيش أقوى ما تكون الحياة فى شتى مناحى حياتنا العامة .

وإلا فبربك أذكر لى سببا واحدا يجعلنى أرى فى تلك الإعلانات التى تنشرها المحافظات أمرا معقولا يسيغه منطق أو يرضى به عقل .

ما هذا الذى تصنعه المحافظات ومن أى أموال ينفقون على تلك الإعلانات التى ينشرونها فى الصحف اليومية .

وقد أسيغ أن تحتفل المحافظات بعيدها القومى فى حفل وسمر يعيد إلى أبناء المحافظات ذكرى أمجادهم وأمجاد أبناء المحافظة من العظماء .

وقد يصلح أن تخلق المحافظة الأسباب للترفيه عن بنيها فى وقده الحياة الثقيلة الخطى الشديدة الوطأة . فالنفوس فى أيامنا هذه تحاصرها أنواع من الهموم شتى وتحيط بها ألوان من الأسى لا يقف لها عدد أو تنتهى بها حدود وحسبك ما نعانيه من ضيق الطريق عند الموارد واتساع الطرق وانفساحها عند المصارف والأنفاق . فلعل حفلا أن ينسى هما وإن كان من المؤكد إنه لن يزيحه .

فلسفة الحفلات إذن قد تجد لها عند العقل مبررا أو هى واجدة باليقين عند النفوس قبولا .

ولكن ما قصة هذه الإعلانات التى نراها فى الجرائد اليومية . الذى أعرفه أن الإعلان يكون فى أغلب الأمر صادرا من تاجر يريد أن يبيع بضاعته أو مالك لعقار أو منقول يريد أن يستبدل بالمال السائل ما يملكه من عقار .

ويكون الإعلان فى حالات قليلة من مشتر يبحث عن شئ لا يجده فى مألوف حياته اليومية ويريد أن يعلن عن حاجته وليشترى هذا الذى يريد شراءه منقولا كان مبتغاه أو كان عقارا .

هذا هو ما أتصوره فى الإعلانات . ولكننى - كعادتى دائما أتشكك فى كل معلومة أنا غير متخصص فى شأنها . وأنا فى باب الإعلان لا أعرف شيئا على الإطلاق فتلك صناعة أنا بعيد عنها كل البعد . ومن أجل هذا لم أطبع لنفسى كتابا على نفقتى الخاصة قط . وما أظن أننى فاعل ذلك أبدا . وقد جعلنى شكى فيما أعلمه عن الإعلان ألجأ إلى الأستاذ الأخ الصديق .

أبو السعود ابراهيم ، أمين مكتبة الأهرام أستعينه أن يرسل إلىّ تعريفا عن هذه المادة . وأنى ناقل إليك ما أرسل .

الإعلان وفلسفته . هو عملية اتصال تهدف إلى التأثير من بائع إلى مشتر حيث يفصح المعلن عن شخصيته ويتم الاتصال من خلال وسائل الاتصال العامة أو هو فن إغراء الأفراد على السلوك بطريقة معينة تؤدى إلى تمام الصفقات المنشورة بشأنها الإعلان .

هذا ما يعرف به الإعلان إذن . فأنا غير بعيد عن فلسفته . وما أحسب أحدا يبتعد عن هذا المعنى فيما يدريه هو بخبرته عن الإعلان .

إذن ما خطب هذه المحافظات المعلنه . وعن أى شئ تعلن . أنه من الطبيعى والمعقول أن تنتهز المحلات التجارية فرصة عيد المحافظة لتعلن عن نفسها وتروج بضائعها . وإنما سؤالى . وعجبى عن الإعلان الرئيسى للمحافظة تتصدر إعلانات التجار جميعا .

أليس هذا الإعلان يثبت أن نظرية العبث وغير المعقول ما زالت تسيطر على بعض الناس .

إنه من المؤكد أن المحافظة لا تنوى أن تبيع نفسها لأى مشتر مهما يكن شأنه .

وهى باليقين ليست سلعة . بل هى باليقين أيضا لا مالك لها . فهى جزء من دولة ذات دستور وسلطات تنفيذية وتشريعية وقضائية ويسرى عليها ما يسرى على ربوع هذه الدولة فى حدودها الأربعة .

فعن أى شىء تعلن المحافظة إذن .

أتراها تريد أن تعرف الناس بها .

فتلك إذن مصيبة لا كاشف لها إلا الله القاهر فوق عباده . أم تراها — وأنا لا أدرى — تعلن عن نفسها لتعرف الناس باسم محافظها .

وإن كان الأمر كذلك — وما أحسبه إلا ذلك — فأى فائدة تعود على السيد المحافظ أن يقرأ الناس اسمه فى إعلان .

إن الناس تحب أن تقرأ أسماء الناس — حتى المحافظين — حين يقومون بعمل يستحق أن يذكروا من أجله . ولا يحب الناس — وهم محقون — أن يقرأوا أسماء الناس لا لشئ إلا لأنهم فى وظيفة معينة .

فإننا إذا ما ذكرنا إسما دون أن نذكر له فعلا معينا نكون بهذا قد كتبنا جملة غير مفيدة نقش فيها المبتدأ دون أن يذكر الخبر . ولا يمكن أن تستقيم جملة بغير مبتدأ وخبر . فأى معنى يمكن أن يصل إلى عقولنا إن قلنا « نعمان » مثلا ولم نقل ماذا فعل نعمان هذا لنذكره . واكتب نعمان ما شاء لك هواك من عدد المرات فإنك مهما تكتب تظل غير مفهوم عند من تخاطبهم وكأنك لم تقل شيئا إلا أنك زدتنا بنعمان جهالة .

وقد أرى فى هذا الإعلان أن المحافظة يرفع إلى السيد الرئيس تهنئاته وإجلاله ودعاءه .

وغريب أن يكون المحافظ — هو بدرجة وزير وقد لقى الرئيس عدة مرات — على غير علم واف بأخلاق رئيس الجمهورية .

أبعد ما يكون حسنى مبارك عن الرغبة فى التأليه . وأكثر الناس عزوفا هو عن تحية تقدم بغير داع أو تهنئة تسعى إليه بلا اسبة .

متواضع هو كل التواضع — إنسان عميق الشعور بالإنسانية . أزهد ما يكون فى البريق وفى المظهر — أعرف الناس أن منصبه جهد وعمل

ومسئولية ومشقة . وليس منصبه كما يتخذه آخرون — وسيلة لدعاية أو استجلابا لمديح أو طريقا إلى تكبر .

يعرف رئيس الجمهورية الدافع خلف كل هتاف فردى . والباعث الذى يتخفى وراءه أى تبجيل . بل ويعلم أن بعض الناس يطلبون أن يقابلوه لمجرد أن يقولوا فى مجالسهم أنهم قابلوا الرئيس . ويعرف أن هناك أثرياء وذوى ثراء باذخ أصابوا من المال ما شاءوا ولم يبق لهم إلا أن يتخذوا سمت أصحاب النفوذ والكلمة المسموعة فهم يحسون — وهم محقون — أن المال وحده لا يصنع للفارغين قيمة ويعرف الرئيس أن كثيرا من هؤلاء يحاول أن يلقاه ليقنع نفسه أنه بلغ من الحياة تلك القيمة التى يفتقدها فى ذاته فيفقدها .

ففيم إذن يحاول المحافظ أن يقدم التحية للرئيس . علم الله أن الرئيس يرى أن إنتاج وحدة وحدة من سلعة مصرية أحب إليه من ألف تحية لا معنى لها ولو أن المحافظ أنفق الوقت الذى بذله فى تدبيج التحية والمال الذى أنفقه من الخزانه العامة يعود على إقليمه الذى هو جزء من مصر بشئ من الخير لكان هذا أجدى له وأنفع . ولكان فعله حبيبا إلى رئيس الجمهورية فى حين يكره الرئيس أن يتخذ المحافظ من اسمه وسيلة لإعلان عن لا شئ . فإن الرئيس حسنى مبارك يعمل نهاره وليله ليحطم اللافتات المرفوعة على الفراغ ليحل مكانها عمل وجهد وإتقان وجدية وصدق وشرف والله على ما أقول شهيد .

اعزك الله ياعزة

-.! فى الأخبار تحت عنوان طفلة تنقذ ثلاثين مواطنا من الموت الخبر التالى أسوقه كما ورد «كتب - محمد رجب - أنقذت طفلة فى الثامنة من عمرها ثلاثين مواطنا ومواطنة من الموت .. دخلت الطفلة عزة محفوظ مكتب العقيد أمين بهجت مأمور قسم الجيزة وأبلغته بأن المنزل المجاور لمنزلها خلف مبنى القسم على وشك الانهيار . وأنها سمعت والدها ووالدتها يتحدثان عن سماع أصوات غريبة تنبعث من جدرانه التى تهتز وقالت أن والديها قررا عدم إبلاغ الشرطة خوفا من سكان المنزل .. انتقل المأمور والضابط للمكان وحينما تأكدا من صدق الطفلة .. قررا إخلاء المنزل فورا من سكانه .. وبعد دقائق من الإخلاء إنهار المنزل وبدأ التحقيق .

كانت الطفلة ترتجف وهى تدخل من باب القسم .. لاحظ المأمور أن نظراتها يملؤها الفزع .. إتجه إليها .. سألها عما تبحث .. قالت له أن صديقتها الطفلة تسكن بهذا المنزل الذى سمعت من والدتها أنه سينهار بين لحظة وأخرى وأنها تخش على صديقتها من الموت وتخشى أن يعلم والداها بحضورها للقسم .. تردد المأمور فى تصديق الطفلة وأمام إلحاحها وبكائها المستمر اصطحبها ومعه المقدمان ماجد الباز وعمر الفرماوى رئيس المباحث .. وتبين أن المنزل متصدع الجدران ومائل قليلا فقرروا إخلاءه فورا .. وبعد دقائق انهار المنزل وتبين من المعاينة المبدئية أن أسقف المنزل من خشب النخيل .

وإلى هنا ينتهى الخبر تقريبا .. وأنت ياعزة لا تدرين أية سعادة غامرة أدخلتها إلى قلوبنا فقد رأيت فيك أملا من بعد يأس قاتم خيم على حياتنا .. فأنت يابنية استطعت بعملك الذى صنعته عن فطرة أن تصبحى إبتسامة مشرقة على قوم طال بهم الزمن وهى تحس المرارة والأسى .

إن عزة لم تلتق بالشرطة من قبل .. وواضح من الخبر أنها كانت خائفة هالعة مرتعشة من الإقدام على هذه المخاطرة التى لا تدرى إلى أى مصير تقودها .

زادها خوفا وهلعا ذلك الحديث البعيد كل البعد عن الانتماء الإنسانى والذى بلغ مسامعها من أمها وأبيها .

وإن كان الخبر لم يأت من الحديث إلا بعجالة سريعة إلا أنه من المؤكد أن الحديث كان مستفيضا متطاولا . وماله لايكون .. زوجان فى بيتهما والأحداث التى يمكن أن تكون مادة تسلية قليلة نادرة وهاهى ذى فرصة متاحة للحديث الوافر . تكلما عن الناس الذين يقطنون بالمنزل والشروخ التى داهمت المنزل ومتى داهمته وكيف سكتوا عنها والوالدان يرفضان أن يبلغا عن المنزل المتهالك ويطمئنا ضميرهما أنهما إنما يصنعان ذلك حتى لايغضبا سكان المنزل من أصدقائهما .. إذن فالأبوان الكريمان يخافان ان يغضبا قوما ولا يخافان أن يقتلاهم أجمعين . ولاشك أن الأبوين فى حديثهما تخوفا أن يذهبا إلى القسم حتى لايشغلا وقتهما ويضيعا يوما بأكمله فى الإبلاغ ومصاحبة الشرطة إلى المنزل .

إن الأبوين من ذلك الجيل الذى نشأ فى الأيام الداكنة من تاريخ مصر والتى جعلت الناس يشعرون أن مصر غريبة عن المصريين وهم عنها غرباء يوم قال الحاكم إن شأنى أنا وشأنكم أن تقبلوا رشوتى بالخبز

الرخيص والتعليم المجانى فى جميع مراحله وأن تهملوا فى مصانعكم ووظائفكم ما طاب لكم الإهمال ولن يمسكم أحد بسوء بل ولكم أيضا أن تكون نسبة الجهلاء من فلاحين وعمال خمسين فى المائة ويشتركوا فى التشريع للبلاد وما الناس وقد كان التشريع يصدر من الحاكم المنفرد ويمر بالمجلس النيابى لإقراره وليس لمناقشته .

جيل ساومه الحاكم واشترى منه حقوق المواطن الإنسان ودفع له الثمن تخريبا للوطن وتدميرا لكرامة مصر واقتصادها .

إنه جيل تعود ألا يكون صاحب رأى فى أى شىء يخرج عن نوع طعامه فى بيته وفى بيته فقط . جيل بعيد كل البعد عن الحياه العامة وما يضطرب فيها وما يمس شئون الناس من ناسهم الذين يحيون من ماء نيلهم ويأكلون من أرض مصرهم شاه زمنا .

والقاطنون فى البيت ماذا نحن قائلون لهم أنلومهم أنهم لم يبلغوا عن الحال الذى صار إليه بيتهم من السهل أن نلوم وليكن أترانا كنا نصنع غير ما صنعوا . أسرات بأكملها يضمها بيت متهالك إن تركوه فهم نهب للتشريد والضياع فى تيه العالم أجمع .. إن سكان هذه البيوت جميعا أحياء وأمواتا ضحايا القانون الذى أصدره الطاغية فى الستينات لتخريب العلاقة بين ملاك البيوت وسكانها وجعل الملاك يتوقفون منذ صدوره عن البناء توقفا تاما وها هى ذى النتيجة اليوم .. مقاتل جماعية لسكان البيوت المتهالكة أو تشريد لمن تركوا المنازل المتصدعة وضياع كامل للشباب الذى يريد أن يبدأ حياته ويكون أسرة .. هذا الضياع الذى أدى إلى وحشية بعض الأبناء لتخلص لهم بيوت والديهم .

أما عزة إبنة الأمل وبنت الأرض الحرة والهواء النقى فقد غالبت
هذا وذهبت وحدها إلى القسم ترتجف ولكنها تغلبت على خوفها لتـ
صديقتها فى البيت المجاور فأنقذت معها سكان البيت أجمعين . أنت يا
تشعرين أن الصداقة تستحق ما تعرضت له . من خوف وحرج وأ
ياعزة تشعرين أنك تنتمين إلى الناس حولك الذين هم وطنك . وأ
ياعزة ضربت المثل الرفيع لكل المصريين فلو أن الوزراء اتخذوا قرارا
بنفس الجرأة التى اتخذت بها قرارك لصلح حال الإقتصاد المصرى
واستقام المعوج من الأمر . فنحن الدولة الوحيدة فى العالم التى تعر
أمراضها وتعرف دواءها ولكنها لاتحاول أن تستخدم الدواء لتقضى
المرض . مازلنا نصر على مجانية التعليم الوهمية ونحن نعرف الخراب الح
بمصر وبالتعليم من هذا الداء ، ومازلنا نصر أن تكون نسبة الع
والفلاحين خمسين فى المائة ونحن نعلم أننا بهذا نخرب التشريع المص
والكرامة المصرية بقانون لامثيل له فى العالم أجمع ونحن نصر أن يـ
الدعم الأغنياء مهما يتفاقم حجم غناهم . ونحن مصرون ألا يعمل العا
ثم يظل فى عمله .

ولو أن أعضاء مجلس الشعب ياعزة أدركوا أنهم مسئولون عن مـ
جميعا وليس عن ناخبيهم وأقاربهم فقط ولو أنهم فعلوا مثلك فقد
الصالح العام على الصالح الخاص لكان حال مصر غير هذا الحال . ولو
الموظفين أدركوا أنهم ينبغى أن يتقنوا عملهم مهما يكن أجرهم ضئيلا
القيام بالواجب فى ذاته قيمة عليا أدركتها أنت ياعزة لأصبح وجه مـ
جديرا بتاريخها العريض .

ولو أن كل فرد فى مصر ياعزة أحس أنه مسئول عن أخيه كما أحسست أنت أنك مسئولة عن صديقتك لاستطعنا ياعزة أن نعلو فوق المحن ونسمو فوق الأزمات وليغير الله مابنا لأننا غيرنا ما بأنفسنا .

وبعد ياعزة ربما كنت فيما أقول حالما فى وادى الآمال لكنك أنت يابنيتى قد فتحت لى الباب إلى هذا الوادى ومادامت مصر قد أنبتتك فمالى لا أرجو أن يكون جيلك كله مثلك . فإن صح هذا الرجاء فإن لنا نحن المتفائلين أن نتوقع لجيلك هذا أن تكون أيامه كلها إشراقا ومالى يابنيتى ألا أرجو فإن لكل ليل صباحا وقد كنت أنت تباشير هذا الصباح .

إلى هؤلاء وحسبى هم

أصدر وزير الداخلية بيانا أن هناك عناصر شيوعية تعمل فى الخفاء وقد يبدو هذا غريبا وهو فى نفس الوقت غير عجيب .. إما أنه يبدو غريبا فذلك لأن قراء هذا النبأ سيتساءلون فيم يعمل الشيوعيون فى الخفاء ولهم جريدة تصدر فى مصر تحمل كل آرائهم وتحمل من أفكارهم ما يصدم الشعور العام ويثير النفوس الشريفة وهم لا يكفون بجريدتهم عن تمزيق جروح الناس وتأليبهم على النظام العام وهم يقولون ما يقولون فى علن وفى غير مواربة ولا غموض .. ففيم إذن حاجتهم أن يعملوا خفية .

إلى هذا قد يذهب من لايعرف تاريخهم وأخلاقهم وتركيبة مذهبهم وتكوين نفوسهم أما غير هؤلاء وأنا منهم فنرى أن عملهم السرى لا غرابة فيه فكما لا يعيش السمك إلا فى الماء لايعيش الشيوعى إلا تحت الأرض وأنى اعتذر للسمك أن شبهتهم به .. فإن خياشيم الشيوعى لا تستطيع أن تشم من الهواء إلا فاسده .. فهناك تحت الأرض فى سراديب العفن الذى يعيشون فيه .. يدبرون المؤامرات ويختلقون الشائعات . ويبتكرون التهم على الشرفاء ويمزقون السمعة الواضحة النقاء . ويعلنون فيما بينهم سخيمتهم على كل من يتقى الله والضمير فيما يقول أو يفعل أو يتغيا .

وهناك فى سراديب العفن يبيتون أمرهم بالليل الدائم الذى يعيشون فيه على الإيمان بالله ، يحاولون أن يزعزعوا رواسخه الشماء فى نفوس المؤمنين فى هذا الخفاء تدبر الكوارث التى لا يستطيعون أن يعلنوا عنها فى الصحيفة المعلنة على الناس ، وإنما تعمل الصحيفة على تهيئة الرأى العام لما يدبره

المتآمرون المستخفون فى غياهب الأرض من مؤامرات ضد الدين والوطن والشرف . والنقاء والحرية .

فأرض الشيوعية لاتكون إلا فى مستنقع العذاب والانسحاق لجماهير الناس . ولاينمو نبتها إلا بدماء البشر وعصير كراماتهم .

ورجال الأمن هم المسئولون عن أمر هؤلاء ونحمد الله أن وزير الأمن عندنا يقظ على علم بما يفعلون ونحمد الله أن عينيه قد اخترقتا عليهم سراديبهم وكشفت عنهم خفاءهم .

ولكننا نحن الشعب نجد الأجواء من حولنا تفوح منها فى كثير من الأحيان ريح الشيوعية .. وإن كان هؤلاء المتآمرون يديرون أمرهم تحت الأرض فإن هنالك قوما آخرين يتسترون عن العلن بالتنكر فى أزياء بريئة يخفون تحتها أسلحة فاتكة تنفذ إلى العلن فى حياتنا بخبث أسود وربما كان الذين تحت الأرض هم الذين يرسمون الأدوار ويحددون الأعمال لمن هم على سطح الأرض فإن أولئك يتولون من أمورنا نواحى هى غاية فى الخطورة .. وهم يبثون الدعاية الشيوعية مستخفية فى كلام ظاهره برىء ولكن الحقيقة فيه تحمل السم الزعاف .. وقد يتنكر هذا الكلام فى زى حديث بالراديو أو التليفزيون وقد يتخذ وجها آخر فى تمثيلية أو مسرحية يتنبه للشيوعية فيها بعض الناس ويسرى السم فى نفوس البعض الآخرين دون أن يدركوا أنهم تجرعوه وسرى فى دمائهم ففى أجهزة الإعلام فئة ليست قليلة من الشيوعيين .. وفساد الفرد منهم يكفى لفساد الآلاف لأنهم متصلون بالجماهير ولهم فى الحديث إليهم تمرس ودربة .. ولهم فى دس السم الشيوعى بأعمالهم وسائل وطرق .. والشيوعيون أيضا منتشرون فى الوسائل الأخرى لمخاطبة الجماهير وقد يتنكر بعض منهم بكثرة الحديث عن الإيمان أو

باصدار كتب عناوينها الإيمان وموضوعها الإلحاد وهؤلاء يتخذون من وظائفهم الرسمية درعا يداورون بها عن أنفسهم المظنة لأن المتعاملين معهم يسترون عليهم ليبلغوا هم هدفهم الذى يسعون إليه من نشر أو إذاعة أو تليفزيون .. وهناك أساتذة فى الجامعات يمسكون برقاب الطلبة العزل الذين لا يملكون سلاحا أمام السلاح الفاتك الخطير الذى يشهره الأستاذ الشيوعى عليهم من إسقاط فى الامتحان وإضاعة للمستقبل وتدمير للحياة .. وهؤلاء الأساتذة الشيوعيون لهم جرأة على الحق لا تتأتى إلا لمن ألحد بالله والوطن وبالقيم الرفيعة وبالخلق الأسمى وتدلى إلى حضيض لا يبلغه إلا من كان مثلهم شيوعيا .

وبعد فإن عملى الحياة أن أنبه الناس إلى هذا الوباء فإن كانت كلماتى هذه ستستطيع أن تجد سبيلها إلى الناس فيصبحوا على حذر مما يدسه الإعلاميون الشيوعيون من سم لهم فما حيلتى مع هؤلاء الطلبة المغلوبين على أمرهم والأساتذة يسدون عليهم منافذ الحياة .

احسب أنه ليس هناك من سبيل إلى هؤلاء الأساتذة إلا أن يكون زملاؤهم من المؤمنين بالله وبالوطن على بينه بأمرهم ..

وإن تكون مجالس الجامعات على وعى بما يصنعه هؤلاء الشواذ فيقمعوا جبروتهم ويقلموا أظفارهم السفاكة . ويحدوا من بطشهم الرهيب .

ولقد أعلم أن هناك من يتساءل عن هذا الحديث الذى نسوقه عن الشيوعية فإن كان للمؤمنين فهم ليسوا فى حاجة آليه فلن يستطيع الكافرون مهما يكن لهم من أساليب أن يزحزحوا إيمانهم قيد شعرة .. وإن كان الحديث للشيوعيين فهم مرتبطون بمذهبهم ارتباط حياة مادية تعود عليهم

بالبحبوحة فى العيش والرفاهية فى الدنيا التى اشتروها بآخرتهم وبوطنهم وبكرامتهم وبضمائرهم .. فما هم إذن بعائدين إلى الطريق الحق مهما يكن الحق واضحا أمامهم ومهما تكن الحجة التى تواجههم منى أو من غيرى قوية لا رد لها ولا جواب عليها ..

والحق أننى أكتب هذا الذى أكتبه لشباب برىء لم يختر طريقه بعد وتتجاذبه نوازع متعارضه من أضواء الكلمات البراقة التى يلفقها عليهم الشيوعيون .. من تقدميه ورفض للرجعية وخروج عن مألوف الناس من دين ووطنية وخلق ونوازع أخرى مما استقر عليه المجتمع الشريف من قيم دينية وخلقية ووطنية ..

إلى هؤلاء أسوق الحديث وحسبى هم ..

لا عجب

تنازعنى وأنا أمسك القلم مذهبان أحدهما يغرينى بالكتابة والآخر يقصينى عنها . ولكل من المذهبين منطقه ورأيه وحجته فأما الأول فيرى أننى كتبت عن الأستاذ هيكل وهو قائم حى فلا داعى هناك أن أكتب عنه وقد انتحر بشهوة الشهرة والتكبر وأصبح قتيلا عدما لا وجود له . وأما الآخر فيرى أن هناك أشياء تحتاج إلى تذكير الناس بها حتى لا يعجبوا مما بلغه الأستاذ هيكل وأمثاله من حضيض . فقد كان طريقهم الذى أختاره لأنفسهم مؤديا بطبيعته إلى هذه النهاية التى لا نهاية غيرها . فهو طريق لا يتفرع ولا يزدوج وإنما هو طريق واحد إلى نهايه واحدة لا نهاية غيرها واستقر بى الأمر إلى ما ترى ورحت أتساءل ولم يطل بى التساؤل . كيف وقع الأستاذ هيكل فى هذا المأزق . صحيح أن الشخصية العامة لا ينطبق عليها ما ينطبق على سائر الناس من وجوب ستر العيوب على الموتى . فلا نذكر إلا محاسنهم . وصحيح أن التاريخ مزق الأستار على العظماء فذكر كل ما يدور فى حياتهم الخاصة من خير ومن شر . فلم يترك من خفاياهم خافية إلا ذكرها ولكن المؤرخين حين صنعوا ذلك لم يكونوا معاصرين لهؤلاء العظماء ولم يكتب أحد منهم عن هؤلاء الأشخاص فى الفترة المتصلة بحياتهم إلا نقدا أو مدحا لأعمالهم العامة أما التنقيب فى شئونهم فلم يأت إلا بعد فترة طويلة من حياتهم كأن الذين عاصروهم قد ماتوا أثناءها وكان أبناؤهم قد أصبحوا أيضا فى ذمة التاريخ . أما فى الزمن المعاصر لهؤلاء

العظماء فما أحسب أن أحدا صنع هذا دون أن يجد من الرأى العام استنكارا ورفضا واحتقارا . وأذكر بعد وفاة الرئيس الأسبق أن تناوله مصرى فى الكويت بصورة بشعة وكتب عن أهله وذويه بقلم عنيف وكانت الحكومة الكويتية لا تحب الرئيس الأسبق ولكنها رفضت هذا الذى كتب وأمرت المصرى أن يرحل عنها فى مدى أربع وعشرين ساعة من ظهور مقالته .

ومهما يكن رأينا فى الأستاذ هيكل فإننا لا نستطيع أن نجحد أنه امام علامة فى فن النفاق . خبير لا يشق له غبار فى ميدان الملق . ويكفيه ما ذكره هو فى كتابه عن زعيمه حين كلفه أن يبحث له أمرا وينهى إليه رأيه فيه فلم يجد ما يقوله لزعيمه إلا جملته الخالدة فى سجل الهوان : إنك أنت الزعيم الملهم فاستلهم وحيك واصنع ما يشير عليك به .

فكيف أخفق هذا الإخفاق هذه المرة وسقط هذا السقوط . وفتح على نفسه وعلى زعيمه بابا لو ولجنا منه إليهما لزكمت منا الأنوف ولكن ما كان لنا أن ندخل بابا مثل هذا عفة منا وبعدا عن المهاوى التى سار إليها الأستاذ هيكل بطبيعة مواتية وسليقة غير مبصرة ولكن حقيرة .

بعد فالسادات راية خفاقة فى سماء مصر والعالم العربى بل والعالم أجمع إلى الأبد الآبدين . فقد صنع الحرب وهو من هيأ لجيش مصر الفرصة العبقرية التى يستردوا كرامتهم فيها التى أهدرها الحكم السابق على حكم السادات فى رمال سيناء وعلى هضاب التاريخ . وهو الذى أفاد من هذا النصر الفريد فى حياة العرب الحديثة فشق الخطوب والأهوال إلى سيناء وكانت حياته هى الثمن وكذلك أفذاذ التاريخ يقدمون حياتهم رخيصة هينة فى سبيل وطنهم وشعوبهم والسادات من قبل نصره الحربى انتصر على نفسه

فلم يقبل أن يظل ممسكا بأرواح الناس يصرفها كيف يشاء وكأنه شيطان مسلط على بنى قومه فهو الذى أطلق الحريات فى ١٥ مايو وأصبح المصرى الذى كان قبل السادات مرعبا على حياته وعرضه وماله وكرامته . مطمئنا إلى الحياة ، أمن سربه ، وهدأ مضطربه ، وقر ثائر خوفه ، يتطلع إلى الغد فى أمل وينام ليله فى أمان ويسعى فى مناكبها فى طمأنينه ، فى وجهه إشراق ، وعلى فمه إبتسامه ، وفى قلبه إيمان ، وبهذا انتصر الجيش وقد تعلق بأسباب السماء وأصبح الجنود البواسل الكرام يحسون أنهم عن أوطانهم يدافعون وليس عن مطامع رئيسهم وآماله أن يصبح زعيما للعالم .. أى عالم .. أفريقيا كان هذا العالم أو عربيا .

وقد كان هيكل هو سوط سيده وكان مكبر الصوت الذى يعلن عقوباته البعيده عن كل عدل أو منطق والبعيدة طبعا عن أى رحمة أو إنسانية ، فالرحمة والإنسانية والمحبة مراتب فوق مرتبة العدل أو المنطق .

وكان هيكل هو اليأس القاتل وجيشنا الباسل يعد نفسه لمعركة العصر الحديث حتى لقد أغرت كتاباته بعض الكتاب منا الذين كانوا يظنون أنه مطلع على بواطن الأمور أن يكتبوا بيانهم يقولون للرئيس السادات مادامت الحرب بعيدة المنال فاعطنا حريتنا ، ولم نكن نعلم وأنى لنا أن نعلم أن الحرب قاب قوسين أو أدنى والكاتب الذى ظللنا السنوات الطوال نبحث عن مصائرنا فى ضباب صراحته قد أعلن أن دون الحرب أهوال لا يقوى عليها إلا الجن والشياطين ونسى أن الله الذى خلق الجن العاصى خلق الجن الصالح المؤمن فكان جيشنا منهم وصاح الله أكبر وكان النصر الذى لم نكن نحن أصحاب البيان نتوقعه فحين شهدناه لم نكابر ولم نجادل فى

الحق الذى لا شك فيه واعترفنا جميعا بعظمة السادات — لم يتخلف منا أحد ولا حتى المأفون والمخدور الغارق فى خمره ومورفينه .

فالأستاذ هيكل كان دائما الزغرودة والأغنية السعيدة الهانئة والأهزوجة الفرحانة الطروب فى أحزاننا وأهوالنا وآلامنا ومآتمنا .

وكان البوم المشؤوم والغراب الناعق وزعيم النائحات فى أفراحنا الحقيقية التى تتمثل فى عودة حريتنا وفى انتصار جيشنا وفى إفشاء السلام على ربوعنا وعودة سيناء إلى أرضنا وهى ملتقى كلام الله بنبيه موسى ومراح يوسف الصديق ومأمن مريم وعيسى ومسرى سيدنا محمد ﷺ إلى المسجد الأقصى . وهى من بعد ومن قبل التاريخ أرض مصر . أترى أن مثل هذا يمكن أن يثير العجب فيما يفعل أو يقول هيهات .

ويل للصغار من الصغار

كم أرثى للصغار حين يتولون مناصب الكبار أوكبار المناصب فإ يمسون فى حال تدعو إلى البكاء والإشفاق والأسى . فلا هم أصب بمناصبهم كبارا ولاهم ظلوا فيما كانوا يؤدونه يتخفى صغارهم فى ظله الجهل بهم وبعدهم عن أماكن الصدارة هنالك حيث تتضح معالمهم جد ويضحى صغارهم معلنا على ملأ الناس لاتتوارى منه خافيه ..

وصلوا إلى أماكنهم بكل ما تأباه الكرامة . وما يتعفف أصح الكبرياء عن إتيانه ، نافقوا فأوغلوا فى النفاق ، وجعلوا رؤوسهم مو للنعال وقدموا من الخدمات ما يتأبى عن تقديمه كل من يملك بقية من أو مسكه من إنسانية الإنسان .

وحين يصلون إلى ماسعوا إليه تبدأ بهم وبمن يعاونهم الكارثه الكب فهم يشعرون أن الكرسى الذى يجلسون إليه كله حراب هى حراب ا إذا اغتصب تنبت من تلقاء نفسها بسر لا يدريه إلا الحق سبحانه وته فإنه هو العدل وهو الكبرياء وهو القيوم على عباده لا يبدل القول ع وماهو بظلام للعبيد .

وحين تنبت هذه الحراب يصبح الجالس على الكرسى موضع شه من معاونيه لا موضع احترام . وتصبح صورته مليئة ببثور الجروح المتخ عن الكرامة التى انتزعها من سحنته وماء الحياء الذى انضبه من و فينظر إليه العاملون معه نظرة احتقار تخترق رأسه وإن صاحبها حديث مديح أو فيه مهادنة . وقد يستطيع الناس الذين لايحترفون النفاق

يتحكموا فى ألفاظهم ولكنهم لا يستطيعون أن يتحكموا فى الشعاع الصادر من عيونهم . وكثيرا ما يكون هذا الشعاع سليطا جارحا عنيفا يجعل المديح الذى ينطق به صاحبه شرا من الذم الصريح وأفدح وقعا من السب الجهير . . . .

مساكين هؤلاء الذين يجلسون إلى كراسى بلغوها بهذا النفاق . فهم لا يطالعون هذا الهزء وتلك السخرية وذلك الاحتقار من سائر الناس فحسب . وإلا لهان الأمر بعض الهون ولكنهم يطالعون هذا الهزء وتلك السخرية وذلك الاحتقار من أنفسهم يواجهونها فى صباح ومساء وفى يقظة ونوم وفى إفاقة وغيبوبة .. فإذا استطاعوا أن يتواروا عن الناس محتمين بكرسيهم فكيف لهم أن يتواروا عن أنفسهم وبماذا يحمون أنفسهم من أنفسهم . . . .

مساكين أولئك الذى يجلسون إلى كراسى بلغوها بهذا النفاق ، فإن قراراتهم دائما مضطربة مثل اضطراب جلستهم على كراسيهم فالكرسى واسع كبير والجالس عليه ضئيل هزيل فهو فيه موجود بلا وجود ، كائن غير كائن ، مقيم ونازح ، حاضر وغائب تائه فى الكرسى مضيع فى منصبه . . . .

وإن كان قراره يمس أمورا جساما فويل لهذه الأمور من قراره ، فهو لا ينظر فى شأنها بعين الباحث عن المصلحة العامة ولا يستعين بأهل الرأى أو العلم أو الخبرة فهو لأنه صغير يعتقد أن الرأى الأمثل هو رأيه والعلم الأوفى هو علمه والخبرة فى جميع مناحى الحياة جميعت بعضها بعضا لتتركز فى كيانه . وهو يعتقد — وبئس ما يعتقد — أن ما فاته من المدارسة والدراسة والخبرة يعوضه هو بالاتهام والفهلوة أليس قد استطاع بهما أن

يصل إلى كرسيه حين نكص صاحب الرأى وصاحب العلم وصاحب الخبرة .

مساكين أولئك الذين يجلسون على كراسى بلغوها بهذا النفاق فإنهم يدأبون فى كراسيهم على مهاجمة الكبار الذين لابد من وجودهم فى كل منحى من مناحى الحياة ، وإنه لأمر محتوم أن يكون من بين العاملين مع الصغار كبار توافروا على عملهم أو فنهم ونأوا بذواتهم عن مواطن الأحذية وعن مواقع النفاق ، والصغير مهما يكن مغيب العقل إلا أنه يعرف ما لدى الكبير من موهبة ومن علم ومن تمرس . فهو ينشب فيه أسنانه الحادة يحاول جهده أن يمزقه ولكن المسكين لا يعلم أن الكبير يظل كبيرا وأن لحم الكبير مُر وأن قناته لا تنكسر وأن أسنان الصغير مهما يكن ذا كرسى وسلطان لابد أن تتساقط جميعا جذاذا مسحوقة مطحونة دون أن تصيب من الكبير جرحا أو تخدش منه إصبعا .

مساكين أولئك الذين يجلسون إلى كراسى بلغوها بالنفاق .. فهم يحاولون أن يرضوا كل الصغار ، ولكن الصغير لا يرضى ومحاولة الارضاء على حساب الحق تغضب الجميع ولا ترضى أحدا فهم بمحاولة الإرضاء هذه يثيرون على أنفسهم أحقاد الصغار أمثالهم ، ولاحقاد الصغار على الصغار نيران لاهبة ، وضراوة سفاحة ، وشرسة ذات سعار وضرام ، فإذا تسامى الكبار أن ينالوا من الصغار بألسنتهم أو بأفعالهم فإن الصغار لا يتسامون عن الصغار ولا عن الصغائر . وهكذا يسقط الصغير عن كرسيه بالصغار كما بلغه بالنفاق وهو شر أنواع الصغار .

مساكين أولئك الذين يجلسون إلى كراسى بلغوها بالنفاق ، فإن الذى يرخص كلمته مداهنا متذللا منافقا ، يرخص ضميره لصا وسارقا ومختلسا

وإذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة المهازيل من أهل بيته كلهم الرقص ، فهو حين يختلس يصدر قرار إداريا بإباحة السرقة لمن يريد أن يسرق . فإن لم يساعد اللص أن يلص مال المرفق الذى يعمل به فهو – بلا شك – يستر عليه ، وإذا أرخى الرئيس على المرؤوس الاغضاء فسد الأمر وصار فوضى وأصبحت المرافق مباءات عفن وأصبح مال المجموع نهبا لأفراد لايقف بهم الطمع عند غاية ولا ينتهى بهم الجشع إلى أمد .

ويل لدولة يتولى فيها الصغار مناصب الكبار أو كبار المناصب فإن الفساد يفشو كنار فى هشيم ولا ينجو منه إلا صاحب العزم الشديد والإيمان العميق بالله وبالقيم وبالمثل الرفيعة وكم هو عسير أن يعصم الشريف نفسه إذا تكالبت حوله زمر المسعورين النهابين الآكلين السحت والعابثين بكل ما هو تقى رفيع فى الحياة أنهم لن يحموا الشريف بينهم فهم قاتلوه أو هم على أحسن تقدير مبعدوه عن مسبعتهم ومراح نهبهم ومسارح عبثهم . ومادام الجالس فى الكرسى الكبير صغيرا فكل شىء إذن مباح .

وبعد فقد أوشك قولى على نهاية وما أحب أن أضع القلم وأترك من يقرأ هذا الكلام فى ظلام يائس وفى عتمة أسيفه محزنة ، فإن رئيس الدولة اليوم رجل كبير ورجل شريف وفى وجوده ضياء أمل لأنه هو الرأس فى هذا البلد وحين يصلح الرأس يمكن أن تنصلح الأعضاء جميعا ، ولكن الشر لا ينحسم فى يوم وليلة ، والهدم يقع فى لحظة والبناء يقوم فى وقت مديد يصل إلى سنوات .

فمالنا لا ندعو له وهو بالدعاء خليق أن يسدد الله خطاه ويضىء له طريق النزاهة الذى اختاره لنفسه والذى لاشك أنه لا يرضى بغيره لمن يعملون معه ويعينونه على مسئوليته وإنها لمسئولية فادحة لا يطيق حملها إلا المؤمنون .

كرامة ومال

هو رجل واسع الثراء عميق الجهل يقال له فى منطقته فلان بك . شاءت الظروف أن يكون مدينا لنا نتيجة محاسبة – لا اقتراض بطبيعة الحال – بمبلغ مائتى جنيه . وكان المبلغ مستحقا لى ولأخوتى معى فكان من المحتم أن أطالب به . وقد فعلت فراح يراوغ ويماطل ويسوف ويؤجل حتى اضطررت آخر الأمر أن أقول له أننى سأقدم الكمبيالة للمحكمة وكنت محاميا فى هذه الفترة من الزمان وفهم البك بحكم ممارسته للحياة معنى أن يقدم محام كمبيالة للمحكمة . فإن الكمبيالة هى التى ستترافع أما مرافعة المحامى فتكون بالصمت . وسارع البك قادما إلى وقد أيقن ألا سبيل له من التهرب الكامل وبقى أن يماحك فى المبلغ نفسه وأخذتنى الدهشة فثروة الرجل باذخة والمبلغ بالنسبة إليه على الأقل ضئيل لا يحتاج إلى هذه المماحكة فاضطررت آخر الأمر إلى أقول له – يا فلان بك إن المال قد صنع لنحفظ به كرامتنا بادى ذى بدء . وإذا بالرجل يقول فى بساطة وفى سليقة مواتية ودون أى تردد – والله يا فلان إن مسألة الكرامة دى متلزمنيش ... مش تحت خبر ملهاش لزوم عندى نهائى . الكرامة دى متعبة وأنا مش ناقص تعب . ولست أدرى مدى الذهول الذى أصابنى إلا أننى واثق أنه كان ذهولا مفجعا فقد وجدتنى دون أن أحس أمزق الكمبيالة وألقى بها فى وجهه وأقول – وأنا متلزمنيش فلوس من واحد زيك حتى ولو كانت حتى وحق أخواتى وصاح الرجل – الله يخليك .. الله يطول عمرك ..

وقام وخرج وهو فى غاية السعادة أنه كسب المائتى جنيه وخسر حياءه وماء وجهه ولكن أكان ذا حياء أو كان لوجهه ماء حتى يخسره . أنه لم يخسر شيئا فهو يعلن فى بساطة أنه بلا كرامة ومن يعلن مثل هذا الإعلان لا يبقى له شئ يحافظ عليه إلا المال .

كانت هذه القصة فى السنوات الأولى من الخمسينات . وقد نسيتها فيما ينسى الإنسان وإنما أذكرها كلما كررت الحياة أمام عينى تبجحا أو سقوط الكرامة قريبا مما أشهدنيه ذلك البك الثري . ولكنى واثق أن الحياة لم تلق أمام عينى مثلا له حتى كانت الأيام القليلة الماضية وروى لى أحد الناشرين الشرفاء قصة عن كاتب كان يتعامل معه أعادت إلى ذهنى صورة تلك الجبلة التى بليت بمعاملتها منذ قرابة ثلاثين عاما . قال الناشر أنه تعاقد مع الكاتب على نشر بعض كتبه ودفع له مقدم العقد وبدأ يطبع الكتب . ولكن الناشر فوجئ بأن الكاتب تعاقد على نفس الكتب مع ناشر آخر فى نفس الوقت وقبض منه مقدم العقد فقصد إلى الكاتب يسأله عن صحة ما بلغه فأكد له الكاتب أن ما بلغه وقع فعلا — أهذا يصح ؟ وإذا بالكاتب التقدمى يقول له فى هدوء وبساطة — عليك أن تعاملنى على أنى ابن .... بلا قيم وأخلاق . وروع الناشر مما يسمع وقال له — وأنا لا أعامل ابن ... بلا قيم ولا أخلاق — وتركه وانصرف .

وهكذا وجدت فى هذا القصة مهانة للإنسانية أعظم من تلك التى شهدتها من البك الثرى . فإن الجهل قد يصلح مبررا لهوان البك ولكن ما المبرر للكاتب التقدمى المثقف وهو من ناحية الثراء موفور لا يحتاج إلى صبابة من مال وإنما يرتكب هذا الذى يرتكبه لأن نفسه لا ترى بأسا أن يفعله .

وقد يجد الكاتب من يقول عنه مدافعا أنه لا بأس عليه أن يكون بلا أخلاق ما دام يقدم فنا وأن التاريخ ليذكر لنا كتابا مثله وشعراء ولكنهم قدموا فنا مازال باقيا على مر العصور وقد يذكر المدافع فى هذا المضمار بودلير وأوسكار وايلد وأبانواس وغيرهم وغيرهم كثير ولكن هذا الدفاع ينهار إذا ذكرنا العهد الذى كان يعيش فيه هؤلاء الكتاب وما أصبح الكاتب يمثله اليوم . فلو أننا ألقينا نظرة على التاريخ لعرفنا الفارق البعيد بين مكانة الشاعر والفنان فى ذلك الحين وبين مكانته اليوم . فالشعراء فى الأمة العربية كانوا يعيشون على جدوى الحكام والأثرياء وكانوا يصطنعون المديح ليجدوا قوت يومهم وقوت عيالهم فإذا لم يستجب لهم الأمير أو الثرى أو صاحب النفوذ أوسعوه هجوما وذماً وحسبنا أن نذكر المتنبى وموقفه من كافور وغيره من حكام ذلك الزمان .

وفى فرنسا يكفى أن أذكر موقف الكونيتسة التى كانت تأوى لافونتين فى بيتها ليجد ما يطعمه . ولكنها كانت تعيش تعتبره حلية تباهى بوجودها فى بيتها كأنه قطعة أثاث نادرة أو تحفة فنية لا تزيد على صورة على الحائط أو علبة نشوق جميلة الصنع حتى أنها سئلت يوما من ستصحبين معك إلى مصيفك . فأجابت — لاأحد كلبى ولافونتين .

وهكذا نزلت بالكاتب العبقرى إلى مرتبة الكلاب .

وذلك عصر لم يكن الكتاب فيه أصحاب فكر إلا من كان منهم قادرا على مواجهة الحياه دون عون من صاحب ثراء أو صاحب سلطان .

أما العصر الحديث فقد رفع الكتاب إلى مكانة سامقة فى المجتمع وأصبح المسرح والسينما والإذاعة والتليفزيون يدرون على الكتاب فى البلاد المتقدمة ما يجعلهم يعيشون عيشة رغدة وسعادة وبلهنية . أما فى البلاد التى

تماثل بلادنا فإن الكاتب يستطيع أن يكون مكفول الرزق فى غير ثراء نعم ولكن فى غير حاجة أيضا أن يبيع قلمه أو ضميره . ومهما يكن الأمر فهو فى غير حاجة أن يكون كما وصف ذلك الكاتب نفسه . بل أن كتاب ذلك الزمان الذى كان الشعراء فيه يستجدون العيش وكان الكتاب فيه مقتنيات فى قصور الأثرياء لم نسمع أن كاتبا فيه أو شاعرا وصف نفسه بهذا الذى يراه الكاتب الذى نروى قصته فى نفسه . ولكن ما دام قد ارتآى أن هذه هى حقيقته فهو من هذه الناحية ومن هذه الناحية فقط أعلم الناس بنفسه وإن كان فى غير هذا أجهل الناس بنفسه ، ما دام الأمر كذلك فإن لهذا الكاتب أن يصنع ما يشاء فلا حساب ليه وقديما قال الشاعر

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

ياليتها كانت أجازة

يظل الإنسان فى الدول المتحضرة حائرا حتى يصدر قانون يتصل بموضوع حيرته فيجد فيه الهدى من الحيرة والطريق الأقوم من الضلال والنور من بعد الظلمة والوضوح من بعد الإبهام .

إلا فى مصر وهى أعظم دولة قانونية فى المنطقة صدر فيها القانون المدنى وقانون المرافعات فإذا أغلب الدول العربية تأخذهما بنصوصها ليكونا هما القانونين السارين بين ربوعها فى المدنى والمرافعات ويصل النقل إلى أقصى مداه حتى لتنقل إحدى الدول مادة من قانون المرافعات تنص على أن محكمة القاهرة هى المختصة بنظر الدعوى فإذا المشرع الذى ينقل القانون للدولة العربية يضع المادة كما هى ويذكر أن محكمة القاهرة هى المختصة ولم يتنبه الناقل أن يجعل المحكمة المختصة محكمة العاصمة للدولة التى ينقل لها القانون .

والدساتير فى أغلب الدول العربية وضعها مشرعون مصريون وعلماء القانون فى أغلب الدول العربية مصريون . ولايزال المحامون المصريون هم المرجع الأول والمترافعين فى القضايا الكبرى فى الدول العربية .

ومع كل هذا فإن الاضطراب القانونى الذى تعانيه مصر لامثيل له فى العالم الذى يسود مجتمعه قانون ما . فقد أصبحت القوانين باخرة تصدر فى سهولة ويسر لم يكن القانون يتصورها فى يوم من الأيام وقد أدى هذا إلى صدور القوانين وهى لم تنضج بعد فما تلبث عند الأعمال أن يتبين نقصها فيعدل النقص بقانون ويعدل التعديل بقانون وهكذا دواليك حتى

أصبحت غابة القوانين اليوم مستغلقة على القاضي والمتقاضين جميعا فالقوانين اليوم حيرة من الهدى وضلال عن الطريق وظلمة من بعد نور وإبهام من بعد وضوح .

وما هذا بعجيب فحين ارتفع شعار القانون فى أجازة كان شعارا مضحكا لا لأن القانون أعطى أجازة ولكن لأن القانون أصلا لم يكن موجود ليمنح أجازة ، فالأجازة لا تمنح لمعدوم . وهكذا لم يكن عجيبا أن أسمع قصة عن أحد وزراء ذلك الزمان تأكدت من حقيقتها بحكم مهنتى كقصاص وروائى فهذه القصة كما سمعتها وكما سأرويها لكم ليس من شأنها أن تختلق اختلاقا أو تصنع صنعا فإن لم تكن قد وقعت فعلا فإنه يستحيل على العقل البشرى أن يبتدعها يقول وزير ذلك الزمان . أن مجلس الوزراء اجتمع فى يوم من الأيام وكان يرأسه رئيس جمهورية عهد الطغيان . وكان ضمن الوزراء وزير جديد يحضر أول جلسة فى مجلس الوزراء .

وبدأ الرئيس يعطى أوامره بشأن مسألة مالية معينة ، فحين انتهى من إصدار الأوامر وحين هم بأن يواصل حديثه فى موضوع آخر قاطعه الوزير الجديد فى براءة الأطفال .

-- ولكن الذى تقوله سيادتكم مخالف للقانون .

ونظر إليه رئيس العهد فى دهشة بالغة .

ماذا تقول .

وظن الوزير فى صدق المستشارين وأساتذة الجامعة .

إن الرئيس يريد أن يعرف القانون الذى يخالفه بأوامره فبدأ يقول :

— المادة .

ولم يكمل لأن رئيس العهد تحول عنه والتفت إلى الوزراء الآخرين فى دهشة بالغة وما يزال وقال لهم :

- بيقول إيه الجدع ده .

وسارع الوزراء يقولون فى جمل يقاطع بعضها بعضا .. إن الوزير جديد ولا يعرف بعد ما يجرى عليه العمل وراح رئيس العهد يكمل أوامره حتى انتهى منها وقف يتهيأ للإنصراف حتى إذا بلغ الباب وقف والتفت مرة أخرى إلى الوزراء وقال لهم :

- وغيروا القانون علشان أخينا ده يستريح .

وانصرف .

وقد كنا تعلمنا فى كلية الحقوق أن القانون لابد أن يتسم أولا بالثبات والاستقرار أما القوانين التى تتغير بأوامر الحاكم فهى ليست قوانين وإنما هى أوامر كان يطلق عليها فى عهد محمد على ومن قبله فرمانات ولعلها كلمة تركية أو هى كذلك على الأرجح وفى ظل الأوامر والفرمانات ينعدم القانون تماما لأن القانون إنما يصدر للكافة وهو يقيد الحاكم قدر ما يقيد المحكومين فإذا لم يكن كذلك فهو معدوم .

فالقانون إذن لم يكن فى أجازة لأن الذى يخرج فى أجازة إنما يخرج لمدة معلومة محددة طالت هذه المدة أم قصرت ولابد قبل هذا أن يكون موجود وليس متلاشيا بغير وجود فهذه الأجازة إذن لو وقعت لكانت أملا لأنها تعنى فى ثناياها أن الغائب قد يعود . ولاشك أن العودة للقتيل أمل عند أهله . وقد كان القانون آنذاك قتيلا .

وكثرة القوانين طريقة من طرق قتل القانون ولكن الذى لاشك فيه أن القوانين الأصلية لمصر عظيمة . ولاشك أيضا أن هناك فى حياة مصر أمورا جدت بعد صدور هذه القوانين تحتاج إلى مواجهة ولاشك أيضا أن طبيعة الحياة بعد زوال الطغيان تحتاج إلى إعادة النظر ولهذا أتمنى أن تهتم وزارة العدل بتكوين لجان من الفقهاء فى القانون المدنى وقانون المرافعات والقانون الجنائى وقوانين الإصلاح الزراعى لتنظر فى كل ما صدر من قوانين فى الفترة الأخيرة وتوائم بين هذه القوانين حتى لا يتعارض قانون مع قانون ولا مادة مع مادة ، فانى اعتقد أن الحالة القانونية التى تواجهها القوانين اليوم تشبه الحالة التى نعانيها فى المياه والكهرباء والتليفونات وإن كان إصلاح هذه المرافق يحتاج إلى مال فإن إصلاح الاضطراب القانونى لايحتاج لغير الجدية فقط ومع أننى اعتقد أنها عملة أكثر صعوبة فى الوجود من المال والعملة الصعبة إلا أنها فى نفس الوقت ليست مستحيلة على أولى العزم والله يوفق العاملين الجادين إلى أحسن سبيل وأقومه .

من طوايا الحياه

ماذا أصاب قومى فى مصر؟ أين الأيام الخضر؟ وأ
العذب وأين ذلك الإشراق المضئ. وأين انطلاق الحديث
قلب إلى قلب ومن صديق إلى صديق ومن إبن إلى أبيه
إبنه ، ومن أخ إلى أخيه . بل أين المودة بين الزوج والز
الذكريات والآمال ، حتى الحب الجديد أصبح لا يولد
ولا هو اليوم يعرف ذلك الاندفاع المتدفق لا يعوق. دفاع
مانع أن يمسك عنانه . أين هو هادرا صاخبا . وأين هو
سلسل المجرى لؤلؤى المياه . يجرى فى ضفتيه لأنه حر
بالشقاء الحب فى وطنى اليوم . الضفتان اليوم مالت جاد
عن مسكن بعد أن نضبت المساكن فى بلدى . لا هدير
هو معتقل فى حبال شديدة الأسر من التفكير المذكور من
يبحث عن فتاه تكون ذات مال . أو ذات عمل . ولم .
عن هواه وحبه فى شريكة الحياة التى يريد الله أن تكون ل
لا مسكنا ومودة لا منفعة .

أصبح يريدها الفتى ذات شقة لا ذات عاطفة وذ
رقة . ماذا صنعت بك الأيام يا بلدى .. أين أنسام الذ
وسماحة . أين انطلاق الريف هناءة وجمالا ما للريف اليو
المال . وزمجر عن صوت العصر العنيف الصارم . كانت الر

صفاء ونعومة . فأصبح يقضى الأيام قضم الوحوش ويكسرها ويحطمها فلا الناى يعزف فى ريفنا ولا الآذان تصغى إلى شدو الكروان والبلبل والعصفور ولا النديم فى ريفنا يعرف ندماء ولا حلقات السمر فى أمسيات الحقول تتحلق تضيئها ألسنة اللهب من نار كنار ابراهيم فهى برد ودفء وهى سلام لا يحرق وإنما يشيع فى نفوس البشرية حوله طمأنينة وهناء وقدسية الأطناب إلا من .وسادها وحب الله والناس وجميع المخلوقات عمادها وأركانها .

ماذا صنع بك الحقد يا ريفنا أين أريجك المعطار وأين أديمك المسماح وأين أجواؤك — التى ما عرفت إلا الحب والنقاء والسعادة والصفاء .. ماذا صنع الأمس باليوم استطاع الحقد الآخذ الوبيل أن يعصف بجمالك هذا كله يا مصر .

ماذا صنع الأمس باليوم وكيف استطاعت السخائم السود القاتمة أن تسحب الغيوم والسحائب الكشرة وتثبتها على أقطار بلدى وفى أنحاء سمائها التى كانت صافية مؤرخة بالعطر النقى والهواء الشريف . ماذا صنع الأمس باليوم . كيف استطاعت الكراهية والبغضاء الحقود أن تبدد أنوال الحب فى نفوس المصريين وقد كانت من قبل تنسج الهوى والتعاطف والرضا والكبرياء فى غير صلف والعزة فى غير تعجرف والأمانة فى غير افتعال . والترفع عن الدنايا والبعد عن الصغار والعزوف عن الآثام فى طبيعة مواتية وفى سجية نقية بيضاء .

أين أيام كان الابن يذوب طربا إذا سمع صوت أبيه وتسجح نفسه إذا سمع دعاء أمه . أين أيام كان الأخ للأخ عونا والأخت لأخيها إبتسامه هوى موصول لا تشوبه على الأيام شائبه . هل استطاعت سنوات الحقد

العجفاء القاتمة السوداء أن تشق الابن عن أبيه وتنأى بالفتى عن دعاء أمه وتجعل الأخ عدوا لدودا والأخت لأخيها ناهية للميراث الذى كان إليه سيؤول .

أضعيف هو الحب ؟... أم قوى هو الحقد ؟ أم أن الأمر ادهى : من ذلك وأمر .

اترى الخير والستر انسحبا من طوايا الحياة ومن وشائج القربى ومن ثنيات الصداقة فانكشف الوادى الأخضر الفسيح بالرضا عن غابة حمقاء مسعورة رعاياها ذئاب بشرية يأكل بعضها لحوم بعض فى غير رحمة ولا شفقة . ومن أين وطيوف الإنسانية قد رحلت هى أيضا مع سماحة الخير ومع كرامات الستر الحبيبة .

لقد دخل الخوف بلدى فى السنين العجاف والخوف سريع مجتاح حين يدخل بلدا . ثم هو عند الارتحال متلكئ وبطئ .. ثقيل الخطى . والأمر بعد ذلك ليس ميسورا فهو كلما هم بالخروج من بلدى اجتاحها عاصف بعيد الخوف إلى الفرائص والذعر إلى النفوس وهكذا استقر الخوف فى السنوات الأخيرة يطفئ شموع الأمن ويحطم أركان السكينة .

تمثل يوما فى قرارات اقتصادية خرقاء دمرت الاقتصاد بعد أن كان يوشك أن يستقر . وكان علاج هذه القرارات بطيئا فازداد الأمر سوءا . ومازال الخوف يظلل اقتصادنا حتى اليوم . المال المصرى يخشى الخروج إلى النشاط ، والمال الأجنبى يخشى الدخول إلى مصر ، والمصريون فى الخارج حبسوا أموالهم فى البلاد التى يعملون بها بعد أن كانت تنثال فى رضا وطمأنينة إلى المصارف المصرية ، وتمثل الذعر فى الأصوات الناعقة من الشيوعيين نشروها فى كل مكان من أركان الإعلام فهم فى الصحف

القومية لهم صفحات ومقالات وصولات وجولات هم فى التلفزيون يوشكون أن يستولوا على الأركان الأدبية فيه لم تفلت منهم إلا الأحاديث الدينية وهم فى الإذاعة يمرحون ويسرحون لهم برامج ثابتة ولهم فى كل حين حديث أو لقاء . والأجهزة جميعها حريصة على أن تسترضيهم حتى لأعلم أن بعض الأحاديث التى تناقش نظريتهم منعتها الإذاعة أن تخرج على الهواء ، وليس انتشار الشيوعيين بالأمر الهين فالأضرار الناتجة عنه أخطر مما يتصور المسئولون فإنهم بصيحاتهم هذه لا يخيفون المؤمنين . فنحن واثقون من أن الشعب المصرى لن يلتفت إليهم ولن يأبه بهم . ولكن الخوف كل الخوف أن تخيف أصواتهم رؤوس الأموال فى خارج مصر سواء كانت مصرية أو أجنبية . فليس فى العالم شئ أكثر جبنا وحذرا من المال . وهيهات لمال يأتى إلى دولة يعلو فيها صوت الشيوعيين .

وهكذا يزداد الخوف تمكنا فى ربوع مصر ويأبى أن ينقشع ويتحدث الناس بصوت جهورى مرتفع فالناس فى بلادى لم تعد تهمس وليس خوفهم اليوم من الحاكم فرئيسنا اليوم أعظم الرؤساء سماحة وبعداً عن العنف والجبروت وانما الناس تخاف من الأيام ومما يأتى به الغد .

ويزداد الخوف رسوخا فى نفوس الناس ثم يقوى ويشتد فيما يراه أخيرا من ظهور وجوه كانت اختفت يوم اختفى عنا عهد الطغيان والاعتداء على الأعراض والحريات والأنفس والأموال فقد علت باخرة أصوات الفئة الباغية وعاد إلى النعيق على نخل بلدى غربان الخراب والهزيمة الماحقة فى كل الحروب تضيف على القمة الخائبة منها ٦٧ علامة لا يمحوها الزمن لعواقب الفساد والسرقات والاعتداء على إنسانية الإنسان وتحطيم الحرمات التى أمر الله أن يراعيها الحاكم فى الرعية . عاد عواء الذئاب فاهاج جميع مكامن الخوف فى نفوس المصريين . ويقول كاهنهم الأكبر للناس أنه بغيره

لن يكون قرار ما حكيما . وكأنه ما كفاه ما شارك فيه من قرارات كانت كلها خرابا مازالت مصر تعانى منه حتى يومنا هذا وستظل تعانى منه لسنوات أخرى قادمة .. الله وحده يعلم عددها . هذه الجوقة التى تمثل السرقات بادئة من مجوهرات أسرة محمد على إلى آخر من صودرت أمواله أو وضع تحت الحراسة والتى تمثل الهزائم المتوالية بدأ من ٥٦ مرورا بحرب اليمن إلى انفصال سوريا إلى ٦٧ . عادت إلى الظهور مع عازفها الأول ولا يجد الناس مفزعا إلا القرآن الكريم أمنهم عند الكريهة ومفازتهم عند الذعر وجنتهم عند الملمات .

ويذكرون أن هذا العهد جميعه لم يكن يؤمن بالله ولا باليوم الآخر وأنه ليس ممن قال عنهم الله سبحانه وتعالى وبالآخرة هم يؤمنون . وهم واثقون من كفر العهد ورجاله ليس مما فعل العهد ورجاله بالبشر فحسب وإنما بنص ما جاء صراحة فى كتب كاتب العهد وكاهنه الأكبر . ويستجيب القرآن الكريم لفزع الناس وكيف لا يستجيب لهم الله وهو قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وتأتى الآية ١١٨ من سورة آل عمران « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » « صدق الله العظيم » والناس تعلم أن القائمين على الأمر اليوم من هؤلاء الذين يعقلون وأن رئيسنا من هؤلاء الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وتتجمع هذه المشاعر جميعا وتصطخب فى نفوس الشعب . ثم تنفجر فئة باغية جاهلة حمقاء تحرق أمن مصر وآمالها فى جنون أرعن مافون وتبحث مصر عن السبب أو الدافع فإذا هى تجده فى جيوب الخونة الخابيل متمثلا فى مبالغ متشابهة ذات أرقام متتالية تصيح بأعلى صوت لها أن

أعداء مصر فى الخارج قد أعطوا أوامرهم لأعداء مصر فى الداخل وشفعوا الأوامر بالأموال واستغل هؤلاء وهؤلاء حراس أمننا ولا الأمناء على الطمأنينة فى بلادنا واستغلوا جهلهم ولا أقول فقرهم وغباءهم ولا أقول ضيقهم وصنعوا منهم قذائف حرقت أول ما حرقت أمن مصر والثقة التى تمكنت أن تشيعها فى نفوس العالم حولها . . .

وترفض مصر أن تصدق ما رفعوه من سبب لعدوانهم فلو كان ما أعلنوه ذا صلة بأى نوع من الصدق لكان من الطبيعى أن تكون وسيلتهم وهم رجال الأمن المجندون متمثلة فى شكوى يقدمونها أو تظلم يحمله عنهم قوادهم أو أى سبيل آخر يتفق مع الخلق . ولكنهم لم يفعلوا ذلك وإنما أذهلتهم الأموال التى تسربت إليهم فى خفية عن مصر وأصبحوا قنابل تحرق مصر مصرهم التى رضعوا لبانها وتفيأوا ظلها والتى لا ملجأ لهم إلا حقولها ومغانيها ولامشرب لهم إلا نيلها إن تكن سنة قد زيدت على تجنيدهم وهم بها ضائقون فإلى أين يريدون أن يتجهوا إذا لم ترد إن لم يتجهوا إلى مصر التى يحرقون . لا ليس زيادة سنة صحيحا كان أمرها أو كان إشاعة بالسبب الذى تقبله مصر . إنما هو الخيانة والرشوة ومصر تتساءل اليوم إن كان الذين قبلوا الرشوة جهلاء حمق فأين كان رؤساؤهم وهو سؤال ضخم وكل إجابة عليه محزنة تمزق النفس حسرة وألما وذهولا فاجعا . مدمرا . والعجيب العجيب وفى نفس الوقت العظيم العظيم أن شعب مصر الذى يتحمل ما يتحمل عن عناء هو الذى يقمع الخونة ويصدهم ويرفض فى إجماع منقطع النظير إجرامهم . إن هذا الشعب الطيب هو النبت الصالح الذى يخرج من الأرض الطيبة وأن أرض مصر العريقة عراقة الزمن لا يمكن أن تنبت إلا هذا الشعب النبيل وصدق الشاعر .

وهل ينبت الخطى إلا وشيجة   وتزرع إلا فى منباتها النخل

الذكرى ذات نفع عميم

ليس فى العالم أجمع نظام كامل . ولذلك قيل أن الديمقراطية هى أقل الأنظمة عيوبا فالديمقراطية هى أكثر الأنظمة إتاحة للحرية وفى ظل الحرية تكثر الأخطاء ونجد من يستغل الديمقراطية للسرقة والتحايل على القانون والاستيلاء على الأموال بالباطل . وحين تخرج دولة مامن فترة ديكتاتورية إلى فترة حرية تصبح هذه الجرائم بشعة المظهر أمام شعب لم يتعود أن يسمع بمثلها فى فترة الديكتاتورية . وينتهز أعداء الديمقراطية الفرصة فيجعلون هذه الجرائم وكأنها عجيبة من عجائب الزمن لا مثيل لها فى الدول الأخرى ولا فى التاريخ . والحقيقة أن هذه الجرائم تعرفها كل الدول الديمقراطية وتصدر أحكام القضاء ما نعة رادعة فتجعلها تتناقص مع الزمن حتى تصبح الحياة طبيعية .

ولم يحدث أن توقفت هذه الجرائم فى أى دولة ولكن الذى يحدث أن تقل ويصبح شأنها شأن أى جريمة أخرى . ومن مظاهر الديمقراطية أن تكون الفرصة متاحة للجميع فالديمقراطية تبيح لكل اناس أن يصبحوا أثرياء ولهذا تدهش الدولة التى فرضت عليها الدكتاتورية حين تجد المال قد انفجر فى شكل فاجر فى ايد لم تكن تعرفه إلا فى صورة جنيهات ضئيلة تقيم الأود أو تكاد . وهؤلاء الأثرياء الجدد يتمثل الثراء عندهم فى السيارة الفارهة وفى الطعام المرتفع السعر حتى ولو كانوا لا يسيغونه وفى الملبس الفاخر حتى وإن غاب عنه الذوق . ويشهد الناس من شأن هؤلاء عجبًا ولكن ماهى إلا سنوات قلائل حتى يتعود الاثرياء الجدد على الثراء .

ويعرفوا أن قنوات الصرف الكريمة شيء آخر تماما غير هذه السيارة وذلك المأكل وهاته الملابس . ونحن اليوم نعيش فترة الانبهار بالانقلاب الذى أحدثته الديمقراطية فى المجتمع . وينتهز الشيوعيون ودعاة القهر والانغلاق الفرصة فتنهال أقلامهم وألسنتهم بألذع الشتائم على الانفتاح .

وهم طبعا يدركون تماما أن هذا الانفتاح هو الذى أتاح لهم حرية التعبير العارمة التى يمارسونها ويدركون أنهم فى زمن الديكتاتورية كانوا يعدون انفاسهم ويحبسون لهاثهم خشية أن يسمع الحاكم هذا اللهاث فينزل بهم ما عرفوه كل المعرفة من اعتداء على العرض والحياة والمال وهذا طبعا بعد أن أغلقت دونهم منافذ الحرية جميعا .

هم يدركون هذا كل الإدراك . ويدركون أنهم لو عادوا إلى الديكتاتورية فمصيرهم السجون التى احتوتهم حينا كبيرا من الدهر ومآلهم النفى مصفدين بالحديد إلى مجاهل الصحراء وفيافيها .

هم يدركون ولكنهم يدركون أيضا أن حاكم مصر اليوم رجل إذا قال فعل ، وإذا وعد أنجز وإذا واثق أوفى . وإذا عاهد صدق . وقد قال لارجعة عن الديمقراطية فمالهم إذن ومذهبهم خسيس لايستغلون الوعد الصادق والعهد الوثيق ويثيرون الدنيا مهاجمين الانفتاح وهم يعلمون كل العلم أنهم حينئذ يهاجمون الحرية والديمقراطية . وما البأس عليهم فإنها هى الديمقراطية التى يريدون أن يهاجموها وهى هى التى يبغضونها كل البغض إذا هم كانوا الحاكمين لكنهم يتغنون بها ويتناشدون بمآثرها إذا كانوا محكومين حتى يستمكنوا بها من الحكم ثم يقتلونها .

وهم حين يهاجمون الحرية يبحثون عن ألفاظ أخرى يهاجمونها بها وهكذا اختاروا فى مصر كلمة الانفتاح ليجعلوا منها سخريتهم ويسددوا

إليها سهامهم وقد يجاريهم في صدى أبواقهم المنتجون في السينما والكتاب الصغار في التليفزيون والمهازيل من أصحاب الأقلام الضائعة في الزحام ويتعالى الضجيج ويزداد التصايح تعالوا فانظروا ماذا صنع ولو كان هؤلاء التابعون على أقل حظ من الذكاء لأدركوا أنهم أنفسهم يهاجمون أنفسهم فالمنتجون بما يهاجمون يقفلون دون جيوبهم الثراء الذى انهمر عليهم والكتاب بما يكتبون يغلقون دون أقلامهم الحرية التى تمرح فيها.

ولكنهم تبعوا وما فكروا وقالوا وما تدبروا . وقلدوا وما عقلوا وصاحوا ولم يتذكروا . وإن الذكرى لذات نفع عميم لمن كان ذا فهم لبيب . لو أنهم طرحوا أذهانهم إلى عهد الطغيان لوجدوا أن هذه السرقات كان يقوم بها الحكام وحدهم ثم هى تتخفى فى أثواب الرعب والفزع فلا ينبس من يعرف أمرها بحرف عنها . وإذا سمع سامع من شأنها همسة نفض أذنه وغسلها خشية أن يرى الزبانية الباطشون على حواف أذنه أثرا ولو ضئيلا مما سمعته هذه الآذان .

ولو أنهم طرحوا أمام أعينهم ذكريات الماضى لاستطاعوا اليوم .. واليوم أمان وحرية .. أن يصرخوا أى داهية دهياء كانت تحيط بنا .. وأين جواهر أسرة محمد على . ما قصة الحقيبة المليئة بالذهب ؟ كيف كانت العملة الصعبة تلقى ذات اليمين وذات اليسار على ماسحى الأحذية ومقبلى الأعتاب ؟ .. ماقصة سيارات النقل التى كانت تحمل تلال الفرو والسجاجيد .. ما شأن القصور الباذخة التى أنشئت فى القاهرة والاسكندرية ؟ ما حديث الثورة المضادة وما انسكب سيولا من أجلها إلى بنوك سويسرا هذا بعض ما تصنعه الدكتاتورية وبعض ما يستره الطغيان إنه يؤمم السرقة لنفسه أول ما يؤمم .

فاصرخوا اليوم ماشئتم أن تصرخوا فى عداء الانفتاح فلا .. لن نكون بعد اليوم للطغيان عبيداً وإن رغمت منكم الأنوف ؟

والشيوعيون أقاموا من أنفسهم حراسا على القطاع العام . ولكنهم حراس مضحكون لأن الدولة بكل أجهزتها لاتفكر مطلقا فى الاعتداء على القطاع العام . بل أن خبراء الاقتصاد من غير الشيوعيين يرون أن القطاع العام هو الركيزة الأساسية فى اقتصاد مصر اليوم .

وكل الدول ذات الاقتصاد الحر فيها قطاع عام فى أمريكا قطاع عام وفى انجلترا وفى سويسرا وفى فرنسا حتى قبل حكم ميتران .

فلا أحد يقف عدوا من القطاع العام إلا جهة واحدة هى التى تحاول أن تقضى عليه وتنسفه نسفا . هذه الجهة هى القطاع العام ذاته . وأن الاحصائيات التى تقارن بين إنتاج القطاع الضخم وإنتاج القطاع الخاص الذى يعتبر ضئيلا بالنسبة إليه لتدل دلالة قاطعة على أن القطاع العام يخرب القطاع العام بما لايستطيع أن يصنعه به أى عدو شرس ذى أنياب وأضراس وسلاح . فإنتاج القطاع الخاص يكاد يماثل إنتاج القطاع العام ولا صلاح لنا إلا بأن نعيد النظر فى القوانين التى تحكم هذا الصرح الضخم فى اقتصادنا فلو اجتمع كل الخبراء الاقتصاديين فى العالم لعجزوا أن يقيموا المنهار منه إلا إذا كانت هنالك قوانين عادلة تحكمه فيها العقاب وفيها الثواب . وفيها العمالة على قدر العمل . أما إذا ظل الأمر على ماهو عليه سائبا بلا رقيب ولاحسيب فلا أمل على الإطلاق .

لا أمل والعامل لايعمل . وهو لن يعمل إلا إذا عرف أن العقاب سينزل به إذا أهمل والثواب سيقدم إليه إذا أحسن عمله . ولا أمل والعمل الذى يستطيع أن يقوم به إثنان يعين له عشرات .

أما فى الدولة الشيوعية فتصل عقوبة العامل المهمل إلى حد الموت مارة

بالنفى والفصل والتعذيب والسجن . وأما فى الدول الرأسمالية فالفصل يقف بالمرصاد للعامل الذى لايعمل . ونحن وحدنا وليس غيرنا الذين لانعرف لنا نظاما اقتصاديا واضح المعالم ذا نظرية معروفة الملامح . فلانحن نأخذ بالنظام الاشتراكى ولانحن نأخذ بالنظام الحر . ولا نحن عرفنا النسب السليمة للمزج بين النظريتين . تلك النسب التى عرفتها انجلترا والسويد ويوجوسلافيا والنمسا وبولندا .

هناك دول تتخلص من السيطرة على مرافق الدولة وها نحن أولاء تطالعنا الأنباء أن اليابان باعت مصلحة التليفونات للقطاع الخاص وقد تم هذا البيع بالقطع بعد موافقة كل المنظمات السياسية والاقتصادية .

وهناك دول تتوسع فى السيطرة على مرافق الدولة مثل فرنسا . وكل دولة فى العالم تعرف النظام الذى يحقق لها أكبر قدر من الإنتعاش معتمدة دائما على نظريات ثابتة لا تحتمل الجدل .

إن زمن صناعة النظريات الجديدة قد مضى والدول اليوم تمارس تطبيق النظريات الثابتة التى مكن لها التاريخ أن تصبح نظرية . إلا نحن فإننا نحاول — وهيهات لنا أن ننجح — أن نخلق نظرية اقتصادية ما أنزل الله بها من سلطان .. ويعلو ضجيج الشيوعيين ويسيطرون على وسائل الإعلام بما لهم من تجمع فيتوه الحق والنظام الأصلح فى ضجيج الغوغاء والشعارات الجوفاء .

ونحن نخشى أن نقدم على الخطوات الصحيحة حذرا من الصيحات المغرضة الرعناء ولكن الأمل تبدو بشائره . ومطالع النور تلوح فى الأفق فهل ترى آن لنا أن ننتظر شروق الحق وغروب الباطل .. ومالنا لانرجو وقد قال سبحانه وتعالى « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » صدق الله العظيم (سورة الرعد الآية ١٧) .

الله خير الماكرين

توالت الخطابات إلى تبارك ما كتبته عن الشيوعية والشيوعيين .. تحمد لى ما أذعته عن استيلائهم على وجه الإعلام المصرى .. وإنه لشعور طيب أن يشعر الكاتب أن ما كتبه إنما هو تعبير عن مشاعر قومه وأن كتابه خطاب تدل فى ذاتها على التحمس والإصرار أن يبلغ القارئ رأيه الى كاتبه ..

ولكن أهم ما جاء فى هذه الخطابات التى نشرت منها خطابا واحدا أن مصر أطلقت بما كتبت آهة كانت مكبوتة فى جنبات شعبها . فقد رأوا سنوات الستينات تعود بوجهها الكئيب البشع الملئ بالبثور وبالرعب وبالجبروت وبالطغيان واستعباد الإنسان وتحطيم كل المعانى الرفيعة فى الحياة .

وأنا حين أكتب ما أكتب لا أرهب الشيوعيين ولا أقول ولا أحفل ولا يعنينى أمرهم أقل عناية . وإنما خشيتى أن يصبح وجه مصر أمام الداخل رعبا وينصب على الشعب الذى عانى ما عانى من ألوان الخسف رهب أن يعود الخسف إليه ويصبح الإنسان المصرى مرة أخرى يتلفت حواليه قبل أن يلتقط شهيقا أو يخرج زفيرا .

وأخشى وتلك خشية وقعت حقيقة أن يمتنع أبناء مصر الذين كانوا قد آمنوا لبلادهم واطمأنوا إلى مصائر أموالهم فيها عن إرسال أموالهم إلى مصارف مصر كما كانوا يرسلون .. وكيف يأمنون أن يرسلوا هذه الأموال من الاضطراب الاقتصادى الذى وقع بمصر والذى باركه الشيوعيون وأحاطوه بألوان التهليل التى يجيدونها كل الاجادة .. حتى إذا انحسر الاضطراب

اليوم وبدأ الاقتصاد المصرى يعود إلى شئ من الطمأنينة ظلت أبواق الشيوعيين التى تملأ الصحف القومية والتى تسد أقطار التليفزيون وميكروفونات الإذاعة تثير الذعر والخوف فى نفوس المصريين فى الخارج وتزجرهم أن يرسلوا أموالهم فهم فى بعدهم لن يعرفوا أن هذه الأصوات ما هى إلا عويل الشيوعيين وصراخهم مجتمعا فيبدو كأنه صادر عن الكثرة وهو فى الحقيقة يمثل هذا الحزب الذى تقدم إلى الانتخابات فلم ينل مقعدا واحدا فى مجلس شعب أو مجلس شورى .. والذين يعيشون فى خارج مصر يقرأون الصحف وبعضهم يسمع الإذاعة وبعض منهم يشاهد التليفزيون . وهم يعرفون أحوال بلادهم من هذه الوسائل فهم حين يقرأون الصحف فيجدون الصوت الشيوعي هو أعلاها نغمة ويجدون الشيوعيين يطلون عليهم بوحشية من كل الصحف وحين يسمعون الإذاعة فيجدون التمثيليات كثيرا ما تنبعث عن الفكر الشيوعى المادى الديكتاتورى وإذا رأوا التليفزيون وشاهدوا التمثيليات التى أصبحت ولا عمل لها إلا مهاجمة الحرية الاقتصادية والدعوة الصريحة حينا والمتكررة أحيانا إلى عهد الإنغلاق والكبت والحبس والستار الحديدى وهم يشاهدون تمثيلية تمجد باقتصاد مصر .. ولن يكون ذلك والشيوعيون هم أئمة الإعلام المصرى فإن هؤلاء لا أمل لهم إلا خراب مصر ساء ما يأملون . وكره الله ما يبيتون وإنه سبحانه لماكر بهم فحيط ما عليه يتآمرون والله خير الماكرين .

هزيمة ٥٦ التى نال بها اليهود شرم الشيخ ولا تذكر شيئا عن نصر ٧٣ الذى رد إلى العرب كل العرب كرامتهم والتى قدم فيها الجيش المصرى بعون الله القدير المتعال معجزة بعد أن انتهت عصور المعجزات والتى دبر لها وقدر وأمر بها الزعيم الخالد على مدى الزمان أنور السادات حين يشاهدون هذا

يحبسون أموالهم عن أن تشارك فى الأقتصاد المصرى بعد أن كانوا سعداء غاية السعادة أن أموالهم أصبحت من العمد الأساسية فى خير مصر وفى سعيها أن تزيح ما تركه عهد القحط والخراب والمخابرات والاعتداء على الأموال العامة والخاصة وعلى الأعراض العامة والخاصة أيضا .

فالذى يصنعه الشيوعيون فى الإعلام المصرى ليس مجرد أصوات إنما هو وجه مصر يخشاه من بداخلها ويتصرف من بخارجها على أساسه .

فليس الأمر مجرد مقالة أو تمثيلية فلو كان هذا كل ما ينتج عن صراخهم لهان الأمر ولما استحق منا أى تعليق .

فمصر لن تكون شيوعية أبدا . مصر ذات الآلاف من السنوات هى مهد الإيمان عرفت التوحيد أول من عرف وكل معابد الفراعنة صروح لإيمان مصر بالسماء وكل كنائس مصر صروح لإيمان الأقباط بالله والمسيح وعشرات الألوف من المآذن فى أرجاء مصر من أقصاها إلى أقصاها حصون شامخة شماء تدمر الشيوعية وتمزق أعلامها وتمحق أفكارها وتقضى على تدبيرها الخبيث .

فما أنا بخائف من هؤلاء المهازيل على مستقبل مصر فى عقيدتها ودينها وديمقراطيتها وإنما أنا أخشى أن تكون أصواتهم هذه تخريبا لاقتصاد مصر فى وقت لا تحتمل فيه مصر أى مساس باقتصادها .

أخشى أن يداخل المشروعات التى أصبحت أساسا فى الاقتصاد المصرى نوع من القلق فتقبض يدها عن التوسع والسعى إلى التقدم الفنى والعلمى . ولا أمل لاقتصاد مصر فى التقدم العلمي والأخذ بآخر ما وصلت إليه المباحث الجديدة المتطورة فى جميع فروع الحياة .

أخشى أن تهرب أموال تفكر فى الدخول واخشى أن يشيع عن مصر أنها عادت دارا لا يأمن فيها المال ولا يطمئن فى ربوعها المستثمرون .

وليعلم الجميع أن المستثمر إذا لم يربح فهو لن يقدم ماله فقد يتبرع شخص بملايين الجنيهات ولكن نفس الشخص لا يضيع مائة جنيه فى مشروع صناعى أو تجارى لا يدر عليه ربحا .

ولست أدرى لماذا تعمل كل التمثيليات فى التلفزيون على ذم الربح وأنه جريمة قتل والمسلمون منهم وغير المسلمين يعلمون أن الربح فى التجارة عمل مشروع تباركه جميع الأديان بلا استثناء .

من حق التمثيليات بل من واجبها أن تهاجم الجشع .. أن ترفض الغش .. أن تمحق التحايل .. أن تشجب المنصب .

ولكن من واجبنا أيضا أن نبارك الرزق الحلال .. من واجب الأعلام بل واجبه الأول وقبل أى شئ آخر أن يبث فى نفوس العالم وفى نفوس المصريين الثقة بمصر .

رقم الايداع ٧٣٨٧
الترقيم الدولى . ٦ - ٠٢١٦ - ٠٨ - ٩٧٧ ISBN

مطابع نهضة مصر


مطابع نهضة مصر